بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هداه . . . أما بعد : ـ

فإن فكرة الترغيب والترهيب فكرةٌ أساسية في الدين ، وهي مبنية على أساسين : ـ

أولهما : أساس ديني ، وأعني به عقيدة الثواب والعقاب : ثواب الله لمن آمن به وعمل بطاعته ، وعقابه لمن أعرض عنه وعصاه . وهذه العقيدة أساسية في كل دين . فأركان الدين ـ أي دين ـ هي : الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالجزاء ، والعمل الصالح ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله : (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(١)

بل هي أساسية في كل مذهب أخلاقي سليم ، إذ لا معنى للأخلاق بلا إلزام ولا جزاء .

ومعنى الترغيب هنا : تحبيب الإنسان في عبادة الله تعالى ، وفعل الخير ، وعمل الصالحات ، ومكارم الأخلاق ، والقيام بكل ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، وقيادته إلى ذلك بزمام الرغبة فيما رتّبَ الله على ذلك من حسن الجزاء ، وجزيل المثوبة في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة المائدة : ٦٩ .

ومعى الترهيب : تخويف الإنسان من البعد عن الله تعالى ، وإضاعة فرائضه ، والتفريط في حقه سبحانه ، وحقوق عباده ، وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه من الشرور والرّذائل ، في أي مجال من مجالات الحياة . وسوق الناس إلى الوقوف عند حدود الله بسوط الرهبة ممَّا أعدّ الله لمن عصاه ، وخالف عن منهجه ، من عذاب في الدنيا والآخرة .

وقد يعبر عن هذه الفكرة بكلمتين أُخريين ، هما : التبشير والإنذار. وهما من المهام الأَساسية لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إلى خلقه : أَن يبشروا من أَطاع الله تعالى واتبع رسله بخيري الآخرة والأُولى ، وأَن ينذروا من عصاه وكذّب رسله بسوءِ العاقبة في الدارين .ولا غرو أَن وصف الله الرسل جميعاً بقوله : (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[1] . وخاطب رسوله محمداً ﷺ بقوله : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً)[2] . . (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً)[3] .

ثانيهما : أساس نفسي معترف به لدى المؤمنين بالدين والجاحدين له . فمما لا ريب فيه أَن الرغبة والرهبة نزعتان فطريتان في الإنسان ، فهو بطبيعته يرغب فيما يحب ، ويخاف مما يكره ، فلا عجب أَن يستفيد المنهج التربوي في الإسلام من هاتين النزعتين ، لدفع الإنسان إلى فعل الخيرات والطّاعات ، واجتناب الشرور والآثام .

---

(١) سورة النساء : ١٦٥ .

(٢) سورة البقرة : ١١٩ .

(٣) سورة الفرقان : ٥٦ .

والواقع أن هناك عوامل كثيرة تثبط الإنسان عن الخير ، وتغريه بالشر ، عوامل من داخل نفسه ، ومن خارجها .

هناك شهواته وأهواءُ نفسه التي بين جنبيه .. بما فطرت عليه من غرائز ودوافع : من حب الذات ، وحب الخلود ، والسيطرة والمال والجنس وغيرها . وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله على لسان امرأة العزيز : (وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)[1] .

وهناك تلك القوة الشريرة التي تزين له معصية ربه ، وهي التي يسميها الدين « الشيطان » . ذلك الوسواس الخنّاس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، ويغوي الإنسان عن طريق الشبهات والشهوات : الشبهات تزعزع عقيدته ، والشهوات تلوث سلوكه .

وهناك شياطين الإنس الذين يفوقون أحياناً شياطين الجنّ في التعويق عن طاعة الله ، والتزيين لمعصية الله .

وهناك الدنيا بما فيها من متاع وزينة ولهو ولعب ، وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد .

وهذا ما جعل الشاعر الصالح يشكو إلى ربه قديماً من هذه « القواطع » الأربع عن طريق الله تعالى حين قال :

إنِّي ابتليتُ بأربعٍ يرمينني ... بالنَّبل عن قوسٍ له توتير
إبليس والدنيا ونفسي والورىٰ ... يا رب أنت على الخلاص قدير

(١) سورة يوسف : ٥٣ .

وهذه العقبات أو القواطع تحتاج من الإنسان ـ بعد عون الله تعالى ـ إلى إرادة قوية ، وعزمٍ صادق على تخطِّيها ، وتجاوزها إلى ما يحب الله تعالى ويرضى .

وهنا يفتقر الإنسان إلى حوافز قوية ، وبواعث صادقة ، يستطيع بها أن يواجه المغريات والمعوقات . ولهذا كان « الترغيب والترهيب » لشحذ الإرادة ، وتقوية العزم ، وشد أزر الإنسان في معركة الحق مع الباطل ، وفي حلبة الصراع مع الشر وحزبه ، حتى تتحول الرغبة والرهبة إلى إرادة ونية ، تدفع إلى عمل وسلوك يرضي الله تعالى .

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته إلى عمر الفاروق رضي الله عنه حين عهد إليه بالخلافة : ألم تر أن الله أنزل الرغبة والرهبة ، لكي يرغب المؤمن فيعمل ، ويرهب فلا يلقي بيده إلى التهلكة .

ويقول ابن عطاء الله في « حكمه » : لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوفٌ مزعج ، أو شوقٌ مقلق .

وقد وصف الله تعالى خيرة عباده المصطفين بقوله : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[1] .

وفي آية أخرى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[2] .

وفي ثالثة يقول عز وجل : (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٠ .

(٢) سورة السجدة : ١٦ .

يَحْذَرُ الآخِـرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَـةَ رَبِّهِ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَـابِ) [1] .

هذا الرغب والرهب ، أو الخوف والطمع ، أو الحذر والرجاء ، يعتبر بواعث مهمة لعمل الصالحات واجتناب السيئات . ولكن من المهم أن يتوازن الخطَّان في قلب المسلم فلا يطغى عليه الرهب والخوف ، حتى ييأس من روح الله ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يغلب عليه الرجاءُ والطمع ، حتى يأمن من مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القـوم الخاسرون .

وقد قال علي كرم الله وجهـه : ألا أنبئكم بالعالِم كل العالِم ؟ من لم ييئِّس عباد الله من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكره !

الترغيب والترهيب في القـرآن الكريم :

وهذه الفكرة ـ الترغيب أو التبشير ، والترهيب أو الإنذار ـ واضحة تمـام الوضوح في القرآن الكريم ، والحديث الشريف . فالقرآن حافل بصور الوعد والوعيد ، ومشاهد القيامة وأهوال الآخـرة ، وأحوال الجنـة والنار ، وما ينتظر المؤمنين الأتقياء من نعيم مقيم ، وما يعد للكافرين الطغاة من عذاب أليم . وهذا في القرآن كله ، وبخاصة المكّي منه ، كما يلمسه القارئُ للجزأين الأخيرين من المصحف : التاسع والعشرين (جزء تبارك) والثلاثين (جـزء عم) .

ومن فتح المصحف وطالع أوائل سورة البقرة في وصف المتّقين

(١) سورة الزمر : ٩ .

المهتدين بكتاب الله تعالى : قرأ في التعقيب عليها قوله سبحانه : (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(١) .

ثم إذا قرأ وصف الذين كفروا ، قرأ في جزائهم : (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٢) .

ثم إذا قرأ أوصاف المنافقين قرأ في جزائهم : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ، فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)(٣) .

فإذا انتقل إلى الصفحة التالية وجد نداءً من الله للناس جميعاً أن يتّقوه ويوحّدوه ولا يجعلوا له أنداداً وشركاء ، وأن يؤمنوا بما أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ ، متحدياً إياهم بالقرآن ، ثم يتلو ذلك بوعيد تنخلع له القلوب ، ووعد تنجذب له الأنفس ، فيقول : (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَن تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا : هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(٤) .

ولا يقف الأمر عند ما يتعلق بنعيم الآخرة وعذابها ، بل يشمل الوعد والترغيب ما يتعلق بحسنة الدنيا وخيرها ، كما يشمل الوعيدوالترهيب ما يتعلق بشقاء الدنيا وآلامها .

---

(١) سورة البقرة : ٥ .
(٢) سورة البقرة : ٧ .
(٣) سورة البقرة : ١٦ .
(٤) سورة البقرة : ٢٤ — ٢٥ .

ومنذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض ، خاطبهما بقوله : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ . قَالَ : رَبِّ ، لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) (١) .

وحينما بعث الله نوحاً شيخ المرسلين ، دعا قومه إلى الله فرغّبهم ورهّبهم ، وكان مما رغبهم به ما حكاه الله عنه : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً) (٢) .

ومن بعده بعث الله هودًا إلى عادٍ قومه ، فكان مما رغبهم به : (وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (٣) .

وهكذا استمرت سلسلة النبوات الهادية مبشِّرةً ومنذرةً ، وسار أنبياءُ الله ورسله يرغّبون ويرهّبون . وكذلك أتباع الأنبياءِ من الدعاة المؤمنين ، كما نشاهد ذلك بجلاءٍ في دعوة مؤمن آل فرعون ، حيث استخدم أُسلوب الترغيب والترهيب ، أقوي ما يكون ، وأبلغ ما يكون ، كما قصه علينا القرآن الكريم .

اقرأْ هذه الآيات من موعظة هذا المؤمن لقومه : (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . وَقَالَ ٱلَّذِي

(١) سورة طـه : ١٢٣ – ١٢٦ . (٢) سورة نوح : ١٠ – ١١ .
(٣) سورة هـود : ٥٢ .

آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ، مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ . وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [1] .

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَأَنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ . مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَىٰ اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) [2] .

الترغيب والترهيب في أحاديث الرسول الكريم ﷺ [3] :

وكما أن القرآن الكريم حفل بألوان من الترغيب والترهيب ، أو التبشير والإنذار ، فإن السنة النبوية قد حوت كذلك منهما ألواناً وأنواعاً أكثر وأغزر ، بحكم ما اقتضته طبيعة السنة من السعة والتفصيل .

ولهذا يجد دارس السنة أحاديث الترغيب والترهيب مبثوثة في تضاعيف كتبها سواء منها ما أُلِّفَ على طريقة المسانيد والمعاجم ، وما أُلِّفَ على طريقة الجوامع والسنن والمصنفات .

---

(١) سورة غافر : ٢٩ – ٣٣ . (٢) سورة غافر : ٣٨ – ٤٤ .
(٣) الأحاديث المذكورة في هذه المقدمة قد خرجت في أماكنها من الكتاب .

وهذا ما جعل بعض أئمة الحديث من قديم يشمرون عن سواعدهم لجمعها من مظانّها المختلفة وإفرادها بالتصنيف ، كما أفردوا غيرها من أحاديث الأحكام ، أو الزهد ، أو الأدب ، أو الفتن ونحوها .

ومن أقدم من قام لهذا الأمر : الحافظ الكبير حميد بن زنجويه النسائي المترجم في تذكرة الذهبي (ت ٢٥١ هـ) .

ثم الإمام الواعظ الحافظ أبو حفص عمر بن شاهين (ت ٢٨٥ هـ) .

ثم الحافظ أبو موسى المديني (ت ٤٨١ هـ) .

ثم جاء بعده من يضرب بصلاحه المثل : الإمام قوام السنة ، الحافظ أبو القاسم التيمي الأصفهاني مصنف كتاب « سير السلف » (ت ٥٣٥ هـ) .. لكنه أورد في كتابه بعض الأحاديث الموضوعة .

ثم جاءَ بعده الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري ، فاستوعب في كتابه كل ما كان في كتب من تقدم ، وأضرب عن ذكر الأحاديث المتحققة الوضع ، مما ذكره أبو القاسم التيمي ، فجاءَ كتابه حافلاً حاوياً لما في الكتب المتقدمة منقَّحاً خالياً من الأحاديث الموضوعة[١] . وهو أصل هذا (المنتقى) الذي نقدم له ، وأعظم كتب « الترغيب والترهيب » بإجماع العلماء .

أساليب الترغيب والترهيب في الحديث :

والناظر في أحاديث الترغيب والترهيب ، يجدها قد اتخذت أساليب وصوراً متنوعة .

(١) من مقدمة المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي لمختصر الترغيب للحافظ ابن حجر ، وسيأتي الحديث عنه في هذا التقديم ، وسنبين أن الكتاب لم يخل من الأحاديث الموضوعة .

فمنها ما اقتصر على مجرد الأمر والنهي وما في معناهما ، فيكفي المؤمن ترغيباً في عمل شيء ما ، أن الله تعالى كتبه أو أمر به ، وهو لا يأمر إلا بخير ، ولا يأمر بالفحشاء .

وحسبه ترهيباً من قبل شيء ما ، أن الله تعالى حرّمه ، أو نهى عنه ، أو كرهه ، وهو لا يحرم إلا الخبائث ، ولا ينهى إلا عن شر وفساد ، كما قال تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[1] .

وفي هذا الكتاب عدد من الأحاديث ليس فيها أكثر من أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكذا ، أو نهيه عن كذا ، أو تحريمه له ؛ ولنقرأ هذه الأحاديث :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته » .

« إن الله كتب عليكم الحج فحجوا » .

« إن الله يوصيكم بأُمهاتكم » .

« إن الله حرّم عليكم عقوق الأُمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات .. وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .

« إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » .

« لا تغضب » وكررها ثلاثاً لمن قال له ﷺ : أوصي .

(١) سورة النحل : ٩٠ .

هذه نماذج لهذا النوع من أحاديث « الترغيب والترهيب » ولكن أكثر أساليب الترهيب هي التي تربط الأمر والنهي بالجزاء ثواباً وعقاباً؛ وهذا هو المتبادر من مفهوم « الترغيب والترهيب » .

أنواع الجـزاء ثواباً وعقاباً :

ولكن ما هي أنواع الأجزية التي ترغب فيها أو ترهب منها الأحاديث النبوية ، أو قل : الإسلام عموماً بقرآنه وسنته ؟

إن الناظر فيما جمعه الحافظ المنذري من أحاديث الترغيب والترهيب؛ وما انتقيناه منها ، يتبين له أن الجـزاء في الإسلام ليس كالجزاء في الديانة اليهودية ، أو الديانة النصرانية .

الجـزاء في اليهـودية والنصرانية :

فالجزاءُ في اليهودية في طابعه واتجاهه العام جزاءٌ مادي دنيوي ، ولا يـكاد يوجد للروحانيات ولا للآخرة ذكر فيها .

ومن قرأ أسفار التوراة لمس هذا بجلاء ووضـو ح .

والجزاءُ في النصرانية ـ في طابعه العام ـ جزاءٌ روحي ، وقلما تجد فيها الأجزية الأُخرىٰ : المادية ، والنفسية ، والاجتماعية ، ونحوها مما يتعلق بهذه الحيـاة الدنيا .

ومن قرأ الأناجيل المعترف بها عندهم لمس هذا بوضوح كذلك .

يقول شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في رسالته « كلمات في مبادىء علم الأخلاق » : كان الترغيب والترهيب في التوراة بوعود وإيعادات كلها عاجلة في هذه الدنيا ، وتكاد تستأثر بها النزعة

[المـادية الخالصة : الصحة ، والرخاء ، وكثرة الأولاد ، وهزيمة الأعداء ، للمطيعين ؛ وأضدادها لأضدادهم[1] ، ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك يحول أنظار معتنقية من ملك الأرض إلى ملكوت السماء ، ويبشر الخيِّرين بما أعد لهم في الآخرة ، من جزاء القرض الحسن بأحسن منه[2] .

(١) هكذا نقرأ في سفر التكوين قول الله لآدم وزوجه : « لا تأكلا من هذه الشجرة ، ولا تقرباها ، لئلا تموتا » (الفقرة ٣ من الفصل الثالث) وقوله لابن آدم بعد أن قتل أخاه : « الآن ستلعنك الأرض . فإذا حرثتها فلن تعطيك ثمراتها » (الفقرتان ١١ ، ١٢ من الفصل الرابع) وقوله لنوح وبنيه بعد الطوفان : « فلتكثروا ولتتناسلوا ولتملؤوا الأرض » (الفقرة ١ من الفصل ٩) وقوله لإبراهيم بعد أن رضي بذبح ولده : « فإذا فعلت ذلك ، ولم ترفض التضحية بولدك الوحيد ، فوعزتي وجلالي ، قول الإله الأبدي ، لأباركنك ولأكثرن ذريتك حتى تكون كنجوم السماء ورمال السواحل ، ولتمكن ذريتك أرض أعدائها » (الفقرتان ١٦-١٧ من الفصل ٢٢) وقول إسحاق في دعائه لابنه يعقوب «إسرائيل» « فليمنحك الله قطر السماء وشحم الأرض ، وليرزقك قمحاً وافراً وكروماً عظيمة ، ولتخضع لك شعوب ولتسجد أمامك أمم » (الفقرتان ٢٨ – ٢٩ من الفصل ٢٧) وقول الله تعالى ليعقوب أيضاً : « كن خصباً كثير الأولاد ، وليخرج من صلبك أمة ، بل أمم ، سأعطيك الأرض التي وعدتها إبراهيم وإسحاق ، وسأعطي هذه الأرض لذريتك » (الفقرتان ١١ -١٢ من الفصل ٣٥) ونقرأ في سفر االخروج قول موسى لقومه : « اعبدوا ربكم الإله الأزلي ، وهو يبارك خبزكم ومماءكم ، ويباعد عنكم العلل والأدواء حتى لا يكون في أرضكم امرأة عاقر ، ولا تجهض فيها امرأة حامل ، وسيطيل أعماركم ، ويبعث الرعب بين أيديكم ، ويهزم الشعوب التي تصلون إليها » (الفقرات ١٥ – ١٧ من الفصل ٢٣) ونقرأ في سفر اللاويين قول الله تعالى لبني إسرائيل في عهـد موسى :

« إذا اتبعتم أمري ، وحفظتم وصيتي ، سأبعث إليكم الأمطار في أوقاتها ، فتخرج الأرض ثمرتها ، والأشجار فاكهتها ، فلا تلبثون إذا فرغتم من حصاد قمحكم واستخراجه من سنابله أن تجنوا كرومكم ، لا تفرغوا من جـني الأعناب حتى تبذروا البذر ، ستأكلون من الخبز حتى تشبعوا ، وتسكنون دياركم آمنين ، حتى لا يزعج أحد نومكم ، وسأباعد عن بلدكم كل حيوان مفترس ، ولن يدخل في دياركم سيف . ستعقبون أعداءكم حتى يتساقطوا أمام سيوفكم . . أما إذا لم تستمعوا لي ، ولم تنفذوا وصيتي فإليكم ما سأفعله بكم : سأسلط عليكم الرعب والسل والحمى . . عبثاً ستزرعون أرضكم ، لأن أعداءكم سيأكلون مما تزرعون ، وستنهزمون أمامهم . . » (الفقرات ٣ – ١٧ من الفصل ٢٦) وهكذا . . وهكذا . . في غير موضع .

(٢) هـكذا نقرأ في إنجيل متى ومرقص قول عيسى عليه السلام لسائل حديث العهد بالإيمان به : =

شمول الجزاء وتنوعه في الإسلام :

أما الجزاءُ في الإسلام ، كما يلمسه من يقرأُ أحاديث هذا الكتاب فضلاً عن قراءة القرآن ـ فهو جزاء متنوع شامل : يشمل الأَجزية الدنيوية ، والأُخروية ، والروحية والمادية ، والفردية والاجتماعية ، والنفسية والأَخلاقية ، سواء في جانب المثوبة أم العقوبة .

المثوبات الروحية :

فمن المثوبات الروحية المعجلة في هذه الدنيا : الحصول على محبة الله تعالى ورضوانه ومعيته والقرب منه ، فإذا علم المؤمن أن هذا العمل يحبه الله تعالى ويرضاه ، ويحب من قام به ، كان ذلك من أعظم الدوافع لتحصيله .

وأمثلة ذلك وفيرة ، منها :

الحديث القدسي في الصحيح : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . » .

وحديث : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » .

= « إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك واعطه للفقراء ، وسيكون لك كنز في السماء ، ثم تعال واتبعني » (الفقرة ٢١ من الفصل ١٠ في إنجيل مرقص ، ومن الفصل ١٩ في إنجيل متى) . وفي إنجيل لوقا قول عيسى لتلاميذه : « وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ، ولا تهتموا لذلك ، لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين ، وإن ربكم (أباكم) يعرف حاجتكم إليها . فابحثوا بالأحرى عن ملكوت السماء ، وكل هذه الحاجات ستعطى لكم نافلة . . . بيعوا ما تملكون واجعلوه صدقات ، واتخذوا لكم خزانة لا تنفذ ، وكنزاً لا يفنى في السماء » . (الفقرات ٢٩ – ٣٤ من الفصل ١٢) .

وكذلك نرى الوصية عينها تتكرر على لسان تلاميذ المسيح ، يؤكدونها في كتبهم ومراسلاتهم .

وحـــديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وحـــديث : « إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن حضروا لم يُعرفوا ، وإن غابوا لم يُفتقدوا » .

ومثل ذلك قوله ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولّاه الله أموركم » .

« ثلاثة يحبهم الله ، ويضحك إليهم ، ويستبشر بهم : الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها في سبيل الله . . . » .

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني . . . إن تقرب إليّ شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

وفي تصوير محبته تعالى وقربه جاء هذا الحديث القدسي العجيب :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تَعُدني ! قال : يـــا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ! قال : ما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ ! يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ! قال : يـــا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ! قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ! يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ! قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ! قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي » .

ومن المثوبات الروحية : ما بشّر به الحديثُ الصحيح أَصحابَ الحلقات القرآنية التي تجتمع على تلاوة كتاب الله وتدارسه : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

ونحوه قوله ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع » .

ومنها : الحصول على حلاوة الإيمان ، أو حقيقة الإيمان ، وهو ما ينشده كل مسلم ، فهو يريد أن يحقق إيمانه ، ويستكمل شعبه ، ويرقىٰ درجاته ، حتى يجد حلاوته في قلبه .

وفي ذلك نقرأُ أحاديث جمة :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » .

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياءُ شعبة من الإيمان » .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه ؛ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً ، أو ليصمت » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » .

« المؤمن يأكل في معيّ واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »

ومثل ذلك : الشعور برضا النفس وغناها وأمنها وسكينتها ، مما يعتبر مصدراً حقيقياً للسعادة ، وفي ذلك أحاديث ، منها :

« ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس » .

« ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

« البر ما اطمأن إليه القلب » .

ومن صور الترغيب : الدعاء لصاحب العمل ، ومن دعا له النبي ﷺ ، فهو في كنف الرحمة ، وذلك كقوله ﷺ :

« نضّر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها ، فأدّاها كما سمعها ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع » .

« رحم الله رجلاً قام من الليل فصلّى ، وأيقظ امرأته ، فصلت ، فإن أبت نضح في وجهها الماء . ورحم الله امرأة قامت من الليل ، فصلت ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » .

« رحم الله امرءًا سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى » .

المثوبات الأخلاقية :

ومن المثوبات : مثوبات أخلاقية محض ، وذلك بمجرد امتداح العمل والثناء على فاعله ، ولهذا صور كثيرة ، مثل قوله ﷺ :

« من أعطي حظّه من الرفق فقد أعطي حظّه من الخير » .

« طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة » .

« يا ابن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ».

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

« خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش : أحناه على ولد في صغره ؛ وأرعاه على زوج في ذات يده » .

« خير الناس من طال عمره وحسن عمله » .

« أفضل الأعمال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين . . » .

« ليس الشديد بالصرعة (الذي يصرع الآخرين بقوة بدنه) إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

المثوبات المادية والاجتماعية :

وهناك بجوار المثوبات الروحية والمعنوية المعجلة ـ مثوبات أخرى في هذه الحياة ، مادية واجتماعية ، مثل : طول العمر ، والبركة في الرزق ، والإخلاف في المال ، وبر الأبناء ، ومحبة الناس ونحوها .

ومن نماذج ذلك هذه الأحاديث :

« من سره أن يُبسط له في رزقه ، وأن يُنسأ له في أثره (أي : يؤخر له في عمره) فليصل رحمه » .

« ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلّا مَلَكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

« بروا آباءكم ، تبركم أبناؤكم ، وعفــوا تعف نساؤكم » .

« ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » .

« خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلّون[1] عليكم » .

المثوبات الأخروية أكثر المثوبات وأشهرها :

وأكثر المثوبات وأشهرها : المثوبات التي ادّخرها الله للمؤمنين في الدار الآخرة من ألوان النعيم المــادي والروحي في جنة عرضها السموات والأرض ، لا تستطيع عقولنا تصور حقيقة نعيمها أو تصويره .

في الحــديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . اقرأوا إن شئتم : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّة أَعْيُنٍ ،جَزَاءً بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[2] وهي ليست جنــة واحدة ، بل هي جِنان ثمــان ، أعلاها الفردوس » .

أتت أم حارثة النبيﷺ فقالت : يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء ، فقالﷺ : « يا أم حــارثة ، إنها جنان في الجنــة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

وهي درجات متفاوته ، بحسب الأعمال وقيمتها في ميزان الحــق ، وما يتوافر لهــا من الإخلاص والتجرد ، كما في الحــديث :

---

(١) تصلون عليهم : تدعون لهم . ويصلون عليكم : يدعون لكم .

(٢) سورة السجدة : ١٧ .

« إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماءِ والأَرض » .

والأَحاديث في ذلك كثيرة :

« من بنى لله مسجداً ، بنى الله له بيتاً في الجنة » .

« من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » .

« أَطعموا الطعام ، وأَفشوا السلام ، وصِلُوا الأَرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

« الحج المبرور ليس له جزاء إِلّا الجنة » .

« أَلك أُم ؟ الزمها ، فإِن الجنة عند رجلها » .

وقريب من ذلك : الترغيب في العمل بأَنه يبعد صاحبه عن النار ، أَو يحرمه على النار ، مثل :

« من اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار » .

« عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

« ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إِلّا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » .

« اتقوا النار ، ولو بشق تمرة » .

ونحو ذلك : الترغيب في العمل بأَنه ينجي صاحبه من حرّ يوم القيامة ، أَو كربات يوم القيامة ، مثل :

« من فرج عن مسلم كربة من كربات الدنيا ، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيـــامة » .

« من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة ، فلينفس عن معسر ، أو يضع عنه » .

« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل . . . الحديث»

من أساليب الترهيب وصوره في الحديث :

هذه بعض صور الترغيب في الحديث الشريف وأساليبه ، وهي صور وأساليب غنية بالتنوع والتعدد ، وكذلك نجد للترهيب مثل هذه الصور والأساليب .

وإذا كان من أساليب الترغيب : بيان أن الله تعالى يحب العمل وصاحبه ، فـإن من أساليب الترهيب بيـــان أن العمل مبغوض عند الله تعالى ورسوله ﷺ ، كما في قوله عليه الصلاة والسلام :

« إن الله يبغض الفاحش البذيء » .

« إن الله يبغض كل جعْظري جواظ ، صخّاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهـــار » .

« إن أبغض الرجـــال إلى الله الألد الخصم » .

« إن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني في الآخرة : أسوأُكم أخلاقاً ، الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » .

« أربعـــة يبغضهم الله : البياع الحلّاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجـــائر » .

ومن أساليب الترهيب : الوعيد على العمل بأنه ينافي الإيمان ، أو يخرج صاحبه من دائرة المؤمنين ، مثل :

« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

« والله لا يؤمن ! قالها ثلاثاً . . . من لم يأمن جاره بوائقه » .

« ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم » .

ومثل ذلك : البراءة من مقترف العمل ، وإخراجه من دائرة المنتمين إليه ، وإلى طريقته ﷺ ، وفي هذا كثير من الأحاديث ، مثل :

« من غشنا فليس مِنّا » .

« ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » .

« ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

وقد يكون الترهيب من الفعل بإعلان أنه من الشرك أو الكفر أو النفاق . . ومهما قلنا هنا : إن المراد بالشرك والكفر والنفاق هنا إنما هو الأصغر لا الأكبر ، فالمسلم يخافها ، ويتحري اجتنابها كلها : أكبرها وأصغرها ، جليّها وخفيّها .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« من حلف بغير الله فقد أشرك » .

« إن الرّقى والتمائم والتِّوَلَة شرك » .

« سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » .

« لا ترجعــوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« اثنان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » .

« أَربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفــاق حتّى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عــاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

« من مات ، ولم يغز ، ولم يحدّث به نفسه ، مات على شعبة من النفــاق » .

ومن صور الترهيب : بيان ما يجلبه العمل من لعنة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ واللعنة تعني : الطرد من رحمة الله تعالى .

« لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجــال » .

« لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من آوي محدثاً ، لعن الله من غَيَّرَ منــار الأَرض » .

« لعن الله الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والنامصة والمتنمّصة » .

« لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وكاتبه ، وشاهِدَيْه » .

ومن صور الترهيب : إعلان أن العمل من الموبقات أو الكبائر ، أو أكبر الكبائر . مثـــل :

« اجتنبوا السبع الموبقات : قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلّا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

« الكبائر : الإشراك بالله تعالى ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

« إن من أكبر الكبائر : أن يلعن الرجل والديه ، فقال رجل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يَسُبُبُّ أبا الرجل ، فَيسُبُّ أباه ، ويسب أمه ، فيسب أُمه » .

الترهيب بذكر العقــوبة على العمل :

وكثيراً ما يكون الترهيب من الشرور والآثام ، والتفريط في فرائض الله ، وحقوق الناس ، ببيان ما رتّب الله عليها من جزاءٍ ، وما ناط بها من عقوبات زاجــرة .

العقــوبات المـــادية المعجـــلة :

وهذه العقوبات قد تكون عقوبات مادية معجلة في هذه الدنيا ، يجعلها الله نذيراً للناس ، لينتبهوا من غفلتهم ، ويتوبوا من معاصيهم ، كما قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ،

لِيُذِيقَهمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ) (١) .

وهذه العقوبات القدرية مرتبطة بالمعاصي ارتباط المسببات بأسبابها ؛ وفقاً لسنن الله تعالى .

من هذه العقوبات ما أنذر به الحديث :

« ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » .

« إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم تلا : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (٢) .

« من بدا جفا ، ومن اتّبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن » .

ومعظم العقوبات هنا عقوبات جماعية ، تصيب المجتمع عامة ، ولا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة .

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

« إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

« إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله عز وجل » .

---

(١) سورة الروم : ٤١ .
(٢) سورة هود : ١٠٢ .

« ما نقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلّا سلط الله عليهم الموت ، ولا منع قوم الزكاة إلّا حبس عنهم القطر » .

« يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم .. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلاّ منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا .. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلط الله عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأخذوا بعض ما في أيديهم .. وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله ، ويتخيروا فيما أنزل الله ، إلّا جعل الله بأسهم بينهم » .

« إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » .

« ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب » .

العقوبات الروحية والنفسية المعجلة :

وإذا كان في جانب الترغيب مثوبات روحية معجلة ، ففي جانب الترهيب عقوبات روحية معجلة أيضاً ، تتمثل أحياناً في قسوة القلب ، وظلمته شيئاً فشيئاً ، حتى يختم عليه بطول التمادي في معصية الله تعالى والإصرار على الإثم .. وأحياناً في الحرمان من البركة أو المعونة والتأييد من الله تعالى :

يقـــول ﷺ :

« .. ولا تكثر من الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

« إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، وذاك الرّان الذي ذكر الله في القرآن » : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(1) .

« أنـــا ثالث الشريكين مـــا لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان خرجت من بينهما » حديث قدسي .

« من أخـــذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفـــه الله » .

ومن ذلك : نسبة العمل إلى الشيطان بوجه من الوجوه ، والشيطان مصدر الشر والفساد . فكل ما ينسب إليه ويتصل به يجب اجتنابه . من ذلك حـــديث :

سئل رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة : فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من العبد » .

وقال عن رجل نـــام حتى أصبح : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه ».

« قال الشيطان لعنه الله : لن يسلم مني صاحب المـــال من إحدى ثلاث ، أغدو عليه بهن وأروح : أخذه من غير حله ، وإنفاقه في غير حقه ، وأحببه إليه فيمنعه من حقه » .

---

(1) سورة المطفـــفين : 14 .

ومثل ذلك : الحرمان من قرب الملائكة ، وهم مظهر رحمة الله ورضوانه ، مثل :

« لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » .

ونحو ذلك : الترهيب من العمل بما يصحبه ويتبعه من عقوبة نفسية معجلة في هذه الحيــاة ، يحسها صاحبها بين جنبيه ألمــاً وعذاباً أشد من العذاب الحسّي والألم البدني ، إنه الخوف والقلق والتمزق ، الذي يؤرق عليه ليله ، ويــكدر عليه نهاره .

تقرأ في ذلك قوله ﷺ :

« من تكن الدنيا نيته ، يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضيعته ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له » .

« لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : الدَّيْن » .

« من أُشرب حب الدنيا التاط منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه » .

وإذا كان من ألوان المثوبة على العمل الصالح الدعاء لصاحبه من رسول الله ﷺ : فإن من ألوان العقوبة على العمل السيىء الدعاء على من اتصف به .

انظر قــوله عليه الصلاة والسلام :

« تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » .

« لا قدست أمة لا يُعطَى الضعيفُ فيها حقَّه غير متعتع » .

« اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولي من أَمر أُمـتي شيئاً فشقّ عليهم ، فاشقق عليه » .

العقـوبات الأخـلاقية المجردة :

ومن العقوبات التي ترهب بها الأَحاديث : عقوبات أَخلاقية مجردة ، بمعـنى : ذم الفعل ، وذم فاعله ، ونقله من دائـرة الخير إلى دائرة الشر ، ومن ذلك :

« من احتكر طعاماً فهـو خـاطئ » .

« مطـل الغـني ظـلم » .

« بحسب امرىءٍ من الشّر أن يحقر أخـاه المسلم » .

« كفى بالمـرء إثمـاً أن يضيع من يقوت » .

« لقد قلتِ كلمة لو مزجت بمـاء البحر لمزجته » قاله لعائشة رضي الله عنها .

« من حُـرِم حظّـه من الرفق ، فقد حُـرم حظّه من الخير » .

« أسرقُ الناس الذي يسرق من صلاته ، قيل : يا رسول الله ، وكيف يسرق من صلاته ؟ قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها . وأبخل الناس من بخل بالسلام » .

العقـوبات الأخروية أكثر العقـوبات ذكراً :

وأكثر العقوبات ذكراً : العقوبات الأُخروية ، التي تبدأ بعذاب

القبر ، ثم بهول الموقف وسوء الحساب ، وما ادّخره الله للعصاة من الخزي والنكال في نار جهنم .

« مَرَّ رسول الله ﷺ بقبرين : فقال : إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ! بلى ، إنه كبير . أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » .

« نفس المؤمن معلقة بِدَيْنه ، حتى يقضى عنه » .

« إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى عليه ، لا يلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً » .

« من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار » .

« صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

وكما يكون الوعيد والترهيب بالنار ، يكون بالحرمان من الجنة ، مثل :

« من مات وهو غاشّ لرعيته حرَّم الله عليه الجنة » .

« لا يدخل الجنة قتات » أي : نمام .

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » .

« من قتل معاهَداً لم يَرَحْ رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

سر تفــاوت الجزاء على الأعمال ثواباً وعقاباً :

والمتأَمل في أَحاديث الترغيب والترهيب يخرج منها بحقيقة مهمة ، وهي أَن الأَعمــال تتفاوت تفاوتاً جدّ كبير في قيمتها الدينية والأَخلاقية ، وفي الجزاءِ عليها عند الله ثواباً أَو عقاباً ، وإِن بدت واحدة في صورتها . نظراً لاختلاف البواعث والنيّات التي دفعت إِليها ، والغايات التي هدفت إِليها ، وموقف المكلف الذي قام بفعلها ، وأَحواله الشخصية وظروفه البيئية ، وملابساته الزمنية .

ففي مجــال الأَعمال الصالحة المرغب فيها ، لو أَخذنا مثالاً لها : الصدقة . .

فلا شك أَن من الصدقات ما لا يقبله الله تعالى ، بل يردّه على صاحبه كما تردُّ ورقــة النقد المزيفة في وجه صاحبها ، لا بل يعاقب عليه بالنار ، كما يعاقب مزيف النقود كذلك . وفي هذا ورد حديث الثلاثة الذي ذكره المنذري عن صحيح مسلم ، وهم : عالم ومنفق ومجاهد ، لم يقم أَحد منهم بعمله لوجه الله تعالى ، بل لوجه الناس ، فأَحبط الله أَعمالهم وأَعلن الحديث أَنهم أَول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة !

وهنــاك صدقات مقبولة ، ولكن بعضها أَفضل من بعض في القيمة والمثوبة .

فالصدقة في حالة الصحة والشح أَفضل من الصدقة في حال المرض والدنو من القبر . ولهذا حين سئل النبي ﷺ : « أَي الصدقة أَفضل ؟ قال : أَن تصدق وأَنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأْمل

الغنىٰ ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا وقد كان لفلان ! » رواه البخاري .

والصدقة من الفقير الذي لا يجد إلا جهده ، أَفضل من صدقة الغني الذي يملك القناطير المقنطرة . حتى جاءَ في الحديث : « سبق درهم مائة أَلف درهم ! فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : رجل له مال كثير أَخذ من عرضه مائة أَلف درهم ، تصدق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان ، فأَخذ أَحدهما فتصدق به » رواه النسائي ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم وصحَّحه على شرط مسلم .

فالأَخير تصدق بنصف ثروته ، وهو الدرهم الواحد ، وربما كان في حـاجة إليه ، والأَول تصدق بجزءٍ قليل منها ، وهو المائة أَلف ، وربما كانت لا تنقص من ثروته الضخمة شيئاً .

والصدقة في السر أَفضل منها في العلانية ، لأَنها أَقرب إلى الإِخلاص؛ وأَبعد عن الرياءِ ، إلا أَن يأْمن على نفسه آفة الرياءِ ، ويريد أَن يسنّ لغيره ليقتدوا به ، وفي الحديث : « صدقة السر تطفيء غضب الرب » . رواه الطبراني بإسناد حسن .

والصدقة على المستور المتعفف أَفضل من الصدقة على السائل الطواف ، كما في الحديث : « ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأَل الناس » .

والصدقة على الأَقارب المحتاجين ، أَفضل منها على غيرهم ، لما لهم من حق ذوي القربىٰ ، مع حق المسلم على المسلم .

وهنا جاءَ الحديث : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة » رواه النسائي ، والترمذي وحسّنه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم وصحّحه .

أي : أن في هذه الصدقة أجرين : أجر الصدقة ، وأجر صلة الأَرحام.

ويزداد فضل هذه الصدقة إذا كان بين الأَقارب شيء من الخصومة والشحناء ، فهو ينفق هنا إرضاءً لله وحده ، لا من باب المكافأَة ومبادلة المعروف بالمعروف . وفي هذا جاءَ الحديث : « أَفضل الصدقة على ذي الرحـم الكاشح » رواه ابن خزيمة في صحيحه ، والطبراني ورجاله رجال الصحيح ، والحاكم وصحّحه على شرط مسلم .

والمراد به : من يضمر العـداوة في كشحه ، أَي : في باطنه .

والصدقة في الأَيام المفضلة ، مثل : شهر رمضان ، وعشر ذي الحجة ، أَفضل منها في غيرها من الأَيام .

جاءَ في الحديث : « ما من أَيام العمل الصالح فيها أَحب إلى الله عز وجل من هذه الأَيام . » قال ابن عباس : يعني : أَيام العشر . رواه البخاري وغيره .

وفي مقابل ذلك نجد الأَعمال السيئة تتفاوت شريّتها والعقوبة عليها من الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، بحسب ما أَشرنا إليه من اختلاف النية والغـاية والحـالة وغيرها .

فإذا أَخذنا معصية كالزنى ، وجدناه يختلف اختلافاً شاسعاً من شخص لآخر ، ومن حالة لأُخرى ، فالزنى في ربيع الشباب المتوقد ، غير الزنى

في خريف الشيخوخة الهادئة ، وللشاب من العذر ـ بقدر ما ، وخصوصاً إذا لم يكن محصناً ـ ما ليس للشيخ . وكلما أوغل في الشيخوخة كانت جريمته أكبر .

وفي هذا جاء حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

والزنى بامرأة الجار أشد إثماً من الزنى بامرأة بعيدة الدار ؛ ذلك أن للجوار في الإسلام حرمة يجب أن تُحفظ ، وحقوقاً مؤكدة يجب أن تُرعى ، والمفترض في الجار أن يكون حارساً لحرمات جاره ، مؤتمناً على عرضه وماله ، لا أن ينقلب لصًّا يسرق المال أو العرض ، أو هما معاً ؛ ومن أجل هذا كان الإثم فيه عشرة أضعاف غيره .

وفي هذا جاء حديث المقداد بن الأسود رضي الله عند عن أحمد والبخاري في الأدب المفرد : « أن النبي ﷺ قال لأصحابه : ما تقولون في الزنى ؟ قالوا : الزنى حرام ، حرّمهُ الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ : لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر من أن يزني بامرأة جاره » .

ومثل ذلك الزني بالمرأة التي غاب عنها زوجها ، وخصوصاً إذا كان غيابه في الجهاد .

وفي هذا جاء حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً عند مسلم : « حرمة

نساءِ المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ! ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله ، فيخونه فيهم ، إلا وقف له يوم يوم القيامة ، فيأخذ من حسناته ما شاءَ حتى يرضى » .

ويزداد إثم الزني حينما يصحبه الإصرار والمداومة عليه ، وهذا غير الذي يلم بالذنب مرة ثم يتوب .

وفي هذا جاءَ حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي جعل أعظم الذنوب بعد الشرك ، ووأد الأولاد : « أن تزاني حليلة جارك » وهذا التعبير : « تزاني » يدل على التكرار .

ثم يزداد الإثم والعقاب مع المجاهرة والتبجح بمعصية الله .

وفي هذا جاءَ الحديث المتفق عليه : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين ».

وقفة مع المعارضين لفكرة الترغيب والترهيب :

وهناك فئتان تعارضان فكرة الترغيب والترهيب ، بناءً على معارضتهما لفكرة العمل رغبة ورهبة : رغبة في ثواب الله ، ورهبة من عقابه عز وجل .

فئة الفلاسفة :

الفئة الأولى تتمثل في بعض فلاسفة الأخلاق المثاليين ، الذين ينادون بأداءِ الواجب لذاته ، بغض النظر عن نتائجه ، نافعة كانت أم ضارة ، ودون التفات إلى رغب أو رهب . وهم يدينون الأخلاق الدينية بأنها تربط أداء الواجب بالمنفعة ، وإن كانت منفعة أخروية .

فئـــة الصوفيـــة :

والفئة الأُخرى تتمثل في بعض الصوفية الذين بالغوا في الإنكار على من فعل الخير وترك الشر وأطاع الله ، رجاءً في رحمته ، وخوفاً من عذابه ، ورغباً في جنته ، ورهباً من ناره ، وقالوا : لا تكن كعبد السوء إن خاف عمل ، ولا كأَجير السوء إن لم يُعط أَجراً لم يعمل !

الرد على الفلاســفة :

أَمــا فئة الفلاسفة « الواجبيين » فالحقيقة أَنهم غفلوا عن طبيعة البشر ، وتطلعهم إلى ما ينفعهم عاجلاً أَو آجلاً ، وهو جزء من تركيب فطرتهم التي فطرهم الله عليها . ولئن كان بعض الناس يستطيع التجرد عن الغايات المنوطة بالعمل ، فإن جمهور الناس لا يحركهم إلا الرغب والرهب . ومادام الأَمر كذلك فليكن الرغب فيما عند الله ، والرهب مما عنده ، ولتكن المنفعة المرجوة لمن يؤدي الواجب ، ويفعل الخير ، فوق المنافع المــادية والذاتية والآنية ، لتكن منفعة أَكبر من المادة الفانية ، وأَوسع من اللذات المحدودة ، وأَبعد من الدنيا العاجلة ، وبهذا يتحرر الإنسان من عبوديته لبريق المادة ، أَو لهوى النفس ، أَو لمتاع الدنيا ، ويغدو تعلقه كله بالله وما عنده ، وهو خير وأَبقى (مَا عِندَكُمْ يَنفَدْ وَمَا عِندَ اللهِ بَــاقٍ)[1] .

إن الذي خشيه المثاليون من الفلاسفة هو العمل رغبة في منافع الدنيا المادية التي تفرق الناس ولا تجمعهم ، وتضعفهم ولا تقويهم ، لأَن منفعة هذا ضرر على آخرين .

(١) سورة النحــل : ٩٦ .

أما العمل رغبة في مثوبة الله ورهبة من عقوبته ، فهو يسع الناس جميعاً ، وهو من أقوى الدوافع لفعل الخيرات ، واجتناب الشرور ، عند جماهير الناس .

على أن هنا نقطة جديرة بالالتفات والتأمل ، نبه عليها شيخنا الدكتور دراز رحمه الله حين قال :

(إن الناس كثيراً ما يلتبس عليهم الأمر بين أجزية العمل وثمراته من جهة ، وبين أهداف العامل وغاياته ، من جهة أخري ، وهكذا يخلطون بين الغاية الفعلية ، بمعنى طرف الطريق وآخره ، والغاية القصدية ، بمعنى نية العامل وهدفه ، ظانين أن وضع إحداهما هو وضع للأخري ، حتى كأن الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج كلها ، أو بعضها على التخيير ، كلا ، إن الأمر ليس كما زعموا ، فأنواع الأجزية التي قررها القرآن للفضيلة والرذيلة لا تحصى كثرة ، ولكن الهدف الذي وضعه نصب عين العامل هدف واحد لا تعدد فيه ولا تردد : هو وجه الله محضاً خالصاً . وهذا كما ترى تعبير روحي عن معنى أداء الواجب لذاته . وهو معنى نجده في القرآن في أكثر من ألف موضع ، كلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية ، بغض النظر عن كل آثارها . على أن تلك الأجزية الكريمة التي وعد الله بها المتقين ، إنما وعد بها من كانت غايته من عمله هو وجه الله وحده ، فهو الذي « أتى الله بقلب سليم » وهو الذي « جاء بقلب منيب » وهو الذي كان عمله « في سبيل الله » وقد سئل النبي ﷺ عن الجهاد بدافع الحمية ، أو لطلب الغنيمة ، أو بقصد حسن الذكر ، فأومأ إلى أن

شيئاً من ذلك ليس في سبيل الله ، قائلاً : « من قاتل لِتكون كلمة الله هي العليـا فهو في سبيل الله »)[1] .

الرد عــلى مبالغات الصوفيــة :

وبعد هذا البيان في الرد على الفلاسفة ، يكون من السهل الرد على الصوفية الذين بالغوا في إنكار الطـاعة والعبادة رغباً ورهباً ، لأَن منطلقهم في الأَصل منطلق ديني وليسوا كالفلاسفة .

وقـد رددنا عليهم في كتابنا (العبادة في الإسلام) وكان مما قلناه هنـاك :

لقد شنع الصوفية على مَنْ عبدَ الله بهذا القصد ، وقالوا : لا ينبغي للعابد أَن يعبد الله ويقوم بأَمره ونهيه خوفاً من عقابه ، أَو طمعاً في ثوابه ، فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظّ نفسه . ومحبة الله تأْبيٰ ذلك وتنافيه ، فإن المحب لاحظّ له مع محبوبه ، فوقوفه مع حظّه علة في محبته ، كما أَن طمعه في الثواب تطلّع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أُجرة ؛ وفي هذا آفتان : تطلّعه إلى الأُجرة ، وإحسان ظنه بعمله ، ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأَمر والنهي من كل علة ؛ بل يقوم به تعظيماً للآمر الناهي ، وأَنه أَهل أَن يُعبد وتعظم حرماته ؛ فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته ، كما في الأَثر الإلهي : « لو لم أَخلق جنة ولا ناراً ، أَما كنت أَهلاً أَن أُعبد؟ »[2] .

---

(١) كلمات في مبادىء علم الأخلاق : للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله .

(٢) ذكر ابن القيم في « مدارج السالكين » أنه أثر إسرائيلي .

ومنه قول القائل :

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ثناء العباد على المنعم ؟

فالنفوس الزكية العلية تعبده ، لأنه أهل أن يعبد ويجل ويحب ويعظم ، فهو لذاته مستحق للعبادة . قالوا : ولا يكون العبد مع ربه . كأجير السوء : إن أعطي أجره عمل ، وإن لم يُعط لم يعمل . فهذا عبد الأُجرة ، لا عبد المحبة والإرادة .

ولهذا يروون عن رابعة الأبيات العدوية المشهورة :

كلهم يعبدون من خوف نار ويودون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحظوا بنعيم ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلا

ومن علماء المسلمين من رد هذا الكلام ، واعتبره من شطحات القوم ورعوناتهم ، ولم ير أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفاً وطمعاً ، ورغباً ورهباً . واحتج هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل والصدّيقين والصالحين ، ودعائهم والثناء عليهم – في كتاب الله تعالى – بخوفهم من النار ، ورجائهم للجنة ، كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدهم المشركون ودعوهم من دون الله أو مع الله : (أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ، يَبْتَغُونَ إِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورا)[١] .

---

(١) سورة الإسراء : ٥٧ .

وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بالإضافة إلى اسمه « الرحمن » فسماهم « عباد الرحمٰن » وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم ، فجعل منها : استعاذتهم به من النار ، فقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً) (١) .

وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار ، فقال تعالى : « رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ » (٢) فجعلوا أعظم وسائلهم إليه ، وسيلة الإيمان ، أن ينجيهم من النار .

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أُولي الألباب : أنهم كانوا يسألونه جنته ، ويتعوذون به من ناره ، فقال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً ، سُبْحَانَكَ ، فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ : أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ .. الآية) (٣) .

« وفي الصحيح ، في حديث الملائكة السيّارة : أن الله تعالى يسألهم عن عباده ، وهو أعلم بهم ، فيقولون : أتيناك من عند عبادك يهللونك ،

(١) سورة الفرقان : ٦٦ .
(٢) سورة آل عمران : ١٦ . . (٣) سورة آل عمران : ١٩٠ – ١٩٥ .

ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجّدونك ، فيقول عز وجل : وهل رأوني ؟ فيقولون : لا ، يارب ، ما رأوك . فيقول عز وجل : كيف لو رأوني ؟ ! فيقولون : لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيداً . قالوا : يا رب ، ويسألونك جنتك . فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا ، وعزتك ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ ! فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشدّ طلباً . قالوا : ويستغيثون بك من النار . فيقول عز وجل : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا ، وعزتك ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدّ منها هرباً . فيقول : إني أُشهدكم أني قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأعذتهم مما استعاذوا » .

والقرآن والسنة مملوءَان من الثناء على عباده – تعالى – وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها ، والاستعاذة من النار والخوف منها .

وقد قال النبي ﷺ لاصحابه : « استعيذوا بالله من النار » وقال لمن سأله مرافقته في الجنة : « أعنّي على نفسك بكثرة السجود » .

قالوا : والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار ، مقصودُ الشارع من أُمته ، ليكونا دائماً على ذكر منهم ، فلا ينسونهما ، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة ، والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار ، هو محض الإيمان .

وقدَ حض النبي ﷺ أَصحابه وأُمته على طلب الجنة ، فوصفها وجّلاها لهم ليخطبوها ، وقال : « ألا مشمّر للجنة ؟ فإنها – ورب الكعبة – نور يتلألأُ ، وريحانه تهتز ، وزوجة حسناءُ ، وفاكهة نضيجة ، وقصر

مشيد ، ونهر مطّرد .. الحديث . فقال الصحابة : يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . فقال : قولوا : إن شاءَ الله » .

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ : « من عمل كذا وكذا أدخله الله الجنة » تحريضاً على عمله لها ، وأن تكون هي الباعثة على العمل ، لطـال ذلك جداً ، وذلك في جميع الأَعمال .

فكيف يكون العمل لأَجل الثواب وخوف العقاب معلولاً ، والرسول ﷺ يحرض عليه ؟ ! قالوا : وأَيضاً ، فالله سبحانه يحب من عباده أن يسأَلوه جنته ، ويستعيذوا به من ناره ، فإنه يحب أن يُسأَل . ومن لم يسأَله يغضب عليه ، وأَعظم ما سئل « الجنـة » وأَعظم ما استعيذ به من « النـار » .

قالوا : وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار ، ورجاء هذه ، والهرب من هذه ، فترت عزائمـه ، وضعفت همته ، ووهَى باعثه ؛ وكلما كان أشد طلباً للجنة وعملاً لها ، كان الباعث له أقوى ، والهمّة أشد ، والسعي أتم ، وهذا أمر معلوم بالذوق .

قالوا : ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع ، لما وصف الجنة للعباد ، وزينها لهم ، وعرضها عليهم ، وأَخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، وما عـداه أخبرهم به مجملاً ، تشويقاً لهم إليها ، وحثاً لهم على أن يسعوا لها سعيها (١) .

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ : ٧٥ – ٧٩ ، مطبعة السنة المحمدية .

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفاً وسطاً بين الصوفية وبين من رد عليهم وخطّأهم من علماء الأمة ، فقال بعد أن حكى قول أولئك وردّ هؤلاء .

(والتحقيق أن يقال : الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه ، والطعام والشراب ، والحور العين ، والأنهار والقصور ، وأكثر الناس يغلطون في مسمّى الجنة ، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة : التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه ، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً ، فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ (١) وأتى به منكّراً في سياق الإثبات ، أي : أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة .

قليل منك يكفيني ، ولٰكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح ـ حديث الرؤية ـ « فو الله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه » . وفي حديث آخر : « أنه سبحانه إذا تجلى لهم ، ورأوا وجهه عياناً ، نسوا ما هم فيه من النعيم ، وذهلوا عنه ولم يلتفتوا إليه » .

قال ابن القيم : « ولا ريبَ أن الأمر هكذا ، وهو أجل مما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال ، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعيّة

(١) سورة التوبة : ٧٢ .

المحبة ، فإن المرءَ مع من أحب ، فأي نعيم ، وأي لذة ، وأي قرة عين ، وأي فوز ، يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها ؟

وهذا والله هو العلم الذي شمّر إليه المحبون ، واللواء الذي أمّهُ العارفون ، وهو روح مسمّى الجنة وحياتها ، وبه طابت الجنة ، وعليه قامت .

فكيف يقال : لا يعبد الله ، طلباً لجنته ، ولا خوفاً من ناره ؟ !

وكذلك النار أعاذنا الله منها ، فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته ، وغضبه وسخطه ، والبعد عنه أعظم من التهاب النار في أجسامهم .

فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين هو : الجنة ، ومهربهم : من النار[1] .

وبعد هذا البيان المشرق الجامع ، لم يعد هناك مجال لدعوى أولئك المتطاولين بغير علم ، الذين يقارنون بين الجنة الموعودة في الإسلام والجنة الموعودة في النصرانية ، والذين وصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب ومتع بدنية مادية خالصة ، ووصفوا الثانية بأنها دار حياة روحية خالصة .

وقد أغنانا ابن القيم رحمه الله ببيانه عن الرد على الشطر الأول فاستبان لكل ذي عينين أن الجنة دار نعيم بدني وروحي معاً ، لأنها دار الثواب للإنسان المكون من الجسم والروح معاً ، ومن حق الكيان ـ الإنسان ـ كله أن ينعم ويثاب ، فإنسان الآخرة امتداد لإنسان الدنيا .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم جـ ٢ ص ٨٠ – ٨١ .

أما الشطر الثاني ، وهو أن جنة النصرانية روحية محض ، فيرد عليه شيخنا دراز رحمه الله بأن هذا مخالف لنصوص الأناجيل نفسها .

(اقرأ مثلاً ، في إنجيل لوقا ، قول عيسى عليه السلام لأصحابه : « من أجل ذلك أعددت لكم مملكة السماء ... لكي تأكلوا وتشربوا على مائدتي ... ولكي تجلسوا على العروش ، اقضوا في شأن الاثنى عشر سبطاً من بني إسرائيل » (الفقرتان ٢٩ ، ٣٠ من الفصل ٢٢) وقوله في وصيته لأحد أتباعه : « إذا أعددت غداءً أو عشاءً ... فادع إليها بعض الفقراء والعجزة والعمي والمقعدين ، وكن مغتبطاً بأنهم لا يقدرون على مكافأتك بمثلها : لأنها سيرد لك مثلها يوم يبعث الصالحون » (الفقرات ١٢ – ١٥ من الفصل ١٤) واقرأ في إنجيل متّى وغيره ، قول عيسى لتلاميذه في مأدبة العشاء الأخير : « أقول لكم إني لن أشرب بعد اليوم من عصير العنب هذا ، حتى يجيء اليوم الذي أشربه معكم من جديد في مملكة ربي (أبي) » (الفقرة ٢٩ من الفصل ٢٦) واقرأ في إنجيل يوحنا : « وسأعطي الفائزين طعاماً من شجرة الحياة التي في جنة الله ، سأعطيهم من المن الغيبي ، وسيلبسون ثياباً بيضاء ، وسيشرب الظامئون من عين ماء الحياة مجاناً ، ولن يجوعوا بعدها ولن يظمؤوا بعدها أبداً ، ولن تصيبهم الشمس ولا الحرور » (الفقرات ٧ – ١٧ من الفصل ٢ والفقرات ٥ من الفصل ٣ ، ٦ والفقرات ٢١ – ٢٧ من الفصل ٧ من الأمثال الغيبية من إنجيل يوحنا) . واقرأ في إنجيل يوحنا أيضاً وصفه للجنة التي يسميها بيت المقدس الجديد : « إن المدينة مبنية من الذهب الخالص كأنها القوارير الصافية : وإن أرضها مفروشة بالأحجار الكريمة من

مختلف الأنواع ، وإن شجرة الحياة فيها تخرج ثمارها اثنتى عشرة مرة في العام : في كل شهر مرة ... إلخ » (الفقرتان ١ ، ٢ من الفصل ٢٢ من الأمثـال الغيبية المذكورة) .

هذه النصوص كان يفهمها النصاري الأولون على حقيقتها ، ولكنهم أخذوا بعد في تأويلها وجعلها ضرباً من التمثيل ، اتقاءً لاعتراضات الملاحدة . والعجيب أن علماءهم لا يزالون مع ذلك مجمعين على أن البعث في المعاد بدني وروحي معاً ، كما أنهم لا يزالون يقرون بأن عذاب النار يتناول الجسم والروح ، وفقاً لمـا دلت عليه نصوص الأناجيل ، مثل قول عيسى لأصحابه : « لا تخشوا أولئك الذين يهلكون الجسم ولا يستطيعون أن يهلكوا الروح ، ولكن خافوا ذلك الذي يقدر أن يهلك الروح والجسم في جهنم » (الفقرة ٢٧ من الفصل ١٠ من إنجيل متى) وقوله : « إن الذين يرتكبون الظلم سيقذفون في النار الحامية التي سيكون لهم فيها العويل وصريف الأسنان » (الفقرة ٤٣ من الفصل ١٣ من إنجيل متى) .

أي حجة عقلية أو نقلية جعلتهم هكذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟ !)[1] .

ويعقب شيخنا دراز على موضوع النعيم المادي والعقاب الحسي ، فيقول:

(وفي الحق أن هذه الجوائز المـادية والمتع البدنية ، مثلها كمثل الأوسمة التي يهديها الملوك ، ليست قيمتها في صورتها ومادتها ، ولكن في دلالتها ومغزاها ، ألا وهو هذا التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن

(١) كلمات في مبادىء علم الأخلاق من كتاب دراسات في الإسلام : ص ١٢١ ، ١٢٢ .

في قوله تعالى : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) ، وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل ، إذ عرفنا أن أعظم ما يخشاه العاقل من عذاب النار ليس هو آلامها الحسية ، بل ما لها من دلالة معنوية على الخزي والإهانة: (رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ)[1] .

كلمة للإمـــام الغزالي :

وأختم هذا الموضوع بكلمة للإمام الغزالي بين فيها بوضوح أهمية الترغيب والترهيب - أو الترجية والتخويف - في الدين ، وضرورته لسالك الطريق إلى الله تعالى ، فقال في كتابه « منهاج العابدين » مخاطباً كل مريد لسلوك منهج العبادة والاستقامة : (ولا يحصل لك السير المستقيم إلّا باستشعار الخوف والرجاء ، والتزامهما حقهما على حدهما) .

أما الخوف فإنما يجب التزامه لأمرين :

أحدهما : الزجر عن المعاصي ، فإن هذه النفس الأمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، طماحة إلى الفتنة ، فلا تنتهي عن ذلك إلّا بتخويف عظيم ، وتهديد بالغ ، وليست هي في طبعها حرة يهمها الوفاء ، ويمنعها الحياء عن الجفاء ، إنما هي كما قال القائل :

والعبـد يُقـرعُ بالعصـا   والحـر تكفيـه المقـالة !

والتدبير في أمرها أن تقرعها أبداً بسوط التخويف قولاً وفعلاً وفكراً.

والثاني : ألّا يعجب بالطاعات فيهلك ، بل يقمعها بالذم والعيب والنقص بما فيها من الأسواء والأوزار التي فيها ضروب الأخطار ، ونحو ذلك ؛

(١) المصدر السابق نفسه ص : ١٢٢ .

وذلك نحو ما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : لو أني وعيسى أُوخذنا بما اكتسبت هاتان لعذبنا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وأشار بإصبعيه ! وعن الحسن أَنه كان يقول : ما يأْمن أَحدنا أَن يكون قد أَصاب ذنباً ، فطبق باب المغفرة دونه ، فهو يعمل في غير معمل !

وأما الرجاء فإنما يلزمك استشعاره لأَمرين :

أحدهما : للبعث على الطاعات ، وذلك أَن الخير ثقيل ، والشيطان عنه زاجر ، والهوى إلى ضده داع ، وحال أَهل الغفلة من عامة الخلق في النفس منطبع مشاهد ، والثواب الذي يطلب بالطاعات عن العين غائب ، وأَمد الوصول إليه فيما يحسبه بعيد ، وإذا كان الحال على هذه الحالة فلا تنبعث النفس للخير ولا ترغب فيه حقه ، ولا تهتز له إلا بأَمر يقابل كل هذه الموانع ويساويها ، بل يزيد عليها ، وذلك الأَمر هو الرجاء القوي في رحمة الله ، والترغيب البالغ في حسن ثوابه ، وكريم أَجره .

ولقد قال شيخنا رحمه الله : الحزن يمنع عن الطعام ، والخوف يمنع من الذنوب ، والرجاء يقوي على الطاعات ، وذكر الموت يزهد في الفضول .

والثاني : ليهون عليك احتمال الشدائد والمشقات . واعلم أَن من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن طاب له شيء ورغب فيه حق رغبته ، احتمل شدته ، ولم يبال بما يلقى من مؤنته . ومن أَحب أَحداً حق محبته أَحب أَيضاً احتمال محنته ، حتى إنه ليجد تلك المحنة ضروباً من اللذة ، أَلا ترىٰ مشتار العسل لا يبالي بلسع النحل لما يتذكر

من حلاوة العسل ، والأَجير لا يعبأُ بارتقاء السلم الطويل ، مع الحمل الثقيل ، طول النهار الصائف المديد ، لما يتذكر من أَخذ درهمين بالعشي ؟ وأَن الفلاح لا يتفكر بمقاساته الحر والبرد ، ومباشرة الشقاء والكد طول السنة ، لما يتذكر من البيدر أَوان الغلّة ؟ وكذلك يا أَخي العباد الذين هم أَهل الاجتهاد إذا ذكروا الجنة في طيب مقيلها ، وأَنواع نعيمها : من حورها وقصورها وطعامها وشرابها وحليها وحللها وسائر ما أَعده الله تعالى لأَهلها ، هان عليهم ما احتملوه من تعب في عبادة ، أَو ما فاتهم في الدنيا من لذة ونعمة ، أَو نالهم من ضرر وذلة أَو نقمة أَو مشقة لأَجلها .

فإذا كان مدار أَمر العبودية على الأَمرين : القيام بالطاعة والانتهاء عن المعصية ، وذلك لا يتم مع هذه النفس الأَمارة بالسوء إلّا بترغيب وترهيب ، وترجية وتخويف ، فإن الدابة الحرون تحتاج إلى قائد يقودها ، وإلى سائق يسوقها ، وإذا وقعت في مهواة فربما تضرب بالسوط من جانب ، ويلوح لها بالشعير من جانب آخر ، حتى تنهض وتتخلص مما وقعت فيه ، وأَن الصبي العرم لا يمر إلى الكُتّاب إلّا بترجية من الوالدين وتخويف من المعلم ، فكذلك هذه النفس دابة حرون وقعت في مهواة الدنيا ، فالخوف : سوطها وسائقها ، والرجاء : شعيرها وقائدها .. وأَنها الصبي العرم يُحمل إلى كتّاب العبادة والتقوى ، فذكر النار والعقاب تخويفه ، وذكر الجنة وثوابها ترجيته وترغيبه ، فكذلك يلزم العبد الطالب للعبادة والرياضة أَن يشعر النفس بالأَمرين ، اللذين هما : الخوف والرجاء .

فعليك أيها الرجل بقطع هذه العقبة في تمام الاحتياط والتحرز وحدّ الرعاية ، فإنها عقبة دقيقة المسلك ، خطرة الطريق ، وذلك أن طريقها بين طريقين مخوفين مهلكين : أحدهما : طريق الأَمن ، والثاني : طريق اليأْس .. وطريق الرجاءِ والخوف هو الطريق العدل بين الطريقين الجائرين ، فإن غلب الرجاء عليك حتى فقدت الخوف أَلبتة وقعت في طريق الأَمن و (فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)[1] وإن غلب عليك الخوف حتى فقدت الرجاء أَلبتة وقعت في طريق اليأْس و (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[2] فإن كنت ركبت بين الخوف والرجاءِ ، واعتصمت بهما جميعاً ، فهو الطريق العدل المستقيم ، التي هي سبيل أَولياءِ الله وأَصفيائه ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله : (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[3] .

فإذًا ظهرت لك في هذه العقبة طرقٌ ثلاثة : طريق الأَمن والجراءَة ، وطريق اليأْس والقنوط ، وطريق الخوف والرجاءِ ممتدًّا بينهما ، فإن ملت عنه بقدم إلى يمينك أَو يسارك ، وقعت في المهلكين ، وهلكت مع الهالكين .

ثم الشأْن أَن الطريقين الجائرين المهلكين أَوسع مجالاً ، وأَكثر داعياً ، وأَسهل سلوكاً من الطريق العدل ؛ لأَنك إذا نظرت من جانب الأَمن رأَيت من سعة رحمة الله وكثرة فضله ، وغاية جوده ، ما لا يبقى

---

(١) سورة الأعراف : ٩٩ .
(٢) سورة يوسف : ٨٧ .
(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

لك معه خوف ، فتتكل على ذلك بمرة وتأمن ، وإن نظرت من جانب الخوف ، رأيت من عظيم قدرة الله تعالى وسياسته وكثرة هيبته ، ودقة أمره ، وغاية مناقشته مع أوليائه وأصفيائه ، ما لا يكاد يبقى معه رجاء ، فتيأس بمرة وتقنط ، فتحتاج إذن أن لا تنظر إلى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ، ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس. بل تنظر إلى هذا وإلى هذا جميعاً ، وتأخذمن هذا بعضاً ، ومن هذا بعضاً ؛ فتركب بينهما طريقاً دقيقاً ، وتسلك ذلك لتسلم ، فإن طريق الرجاء المحض سهل واسع عريض ، وعاقبته تؤديك إلى الأمن والخسران ، وطريق الخوف المحض واسع عريض ، وعاقبته تؤديك إلى الضلال ، وطريق العدل بينهما ، أعني : طريق الخوف والرجاء ، وذلك ، وإن كان طريقاً دقيقاً عسراً ، فإنه سبيل سالم ، ومنهج بيّن يؤدي إلى الغفران والإحسان ، ثم إلى الجنان والرضوان ، ولقاء الملك الرحمٰن سبحانه ، أما تسمع قوله تعالى في أبناء هذا السبيل (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) (١) . ثم قال : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢) . فتأمل هذه الجملة جيدًا ، وتشمر وتنبه للأمر ، فإنه لا يجيء بالهوينا ، والله ولي التوفيق » .

---

(١) سورة السجدة : ١٦ .

(٢) سورة السجدة : ١٧ .

عملي في هذا الكتاب

ترجع صلتي بكتاب « الترغيب والترهيب » للإمام المنذري إلى عهد بعيد . فهو أحد كتب الحديث التي عرفتها منذ كنت طالباً ، وانتفعت بها كثيراً في دروسي وخطبي ومحاضراتي .

وقد رأيت كثيراً من الخطباء والوعاظ والمدرسين يأخذون عنه ويقتبسون منه في خطبهم ومواعظهم ودروسهم ، ليرققوا بأحاديثه القلوب ، ويحركوا في الأنفس الحوافز لعمل الخير ، وخير العمل ، رغبة فيما عند الله ، ورهبة مما عنده .

كما رأيت أكثر هؤلاء يأخذون كل ما ورد في الكتاب ، لا يفرقون بين صحيح وضعيف ، ولا يميّزون بين مقبول ومردود .

بل رأيت بعضهم يولع بالأحاديث الواهية والمنكرة والشديدة الضعف بل الموضوعة أكثر من ولعه بالصحيح والحسن ، لأن تلك الأحاديث تحمل من التهويل والمبالغات ما يثير عواطف العامة من الناس ، وينتزع إعجابهم ودهشتهم (ومصمصة) شفاههم ، غير مبالٍ بما يحدثه ذلك من استنكار لدى المثقفين والمستنيرين .

وحسب هؤلاء إذا احتج عليهم محتج ، أو أنكر عليهم منكر ، أن يقولوا : هذا الحديث في كتاب « الترغيب والترهيب » .

كما أن بعض هؤلاء لا يعرفون مصطلح المنذري رحمه الله في كتابه ، لأنهم لم يقرؤوا مقدمته التي بيّن فيها منهجه ، وذكر فيها مصطلحه :

أنه إذا بدأ الحديث بـ (رُوِي عن) وأهمل الكلام عليه في آخره ، كان ذلك من دلائل ضعف الحديث عنده ، فمن لا يعرفون مصطلحه يحسبون سكوته يعني قبوله للحديث .

ولهذا قام في نفسي من أمد بعيد أملٌ تمنيت أن أقوم به ، وهو اختصار الكتاب بحذف الضعيف والمكرر منه ، والتعليق عليه بما لابد منه في أضيق نطاق ؛ وبذلك ننقذ كثيرين من التعلق بالضعيف من الحديث .

صحيح أن جمهور العلماء أجازوا رواية الضعيف في الترغيب والترهيب ، والرقائق ، وفضائل الأعمال ؛ ولم يشدّدوا إلّا فيما يتعلق به حكم شرعي من حلال وحرام وكراهة وإيجاب واستحباب .

وفي ذلك قال العلامة المنذري في مقدمة « الترغيب » : إن العلماء أساغوا التساهل في أنواع من الترغيب والترهيب ، حتى إن كثيراً منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله !

ونحو هذا ما قاله الحاكم في (مستدركه: ١ / ٤٩٠) في أول « كتاب الدعاء » : وأنا بمشيئة الله أجري الأخبار التي سقطت على الشيخين في « كتاب الدعوات » على مذهب أبي سعيد ، عبد الرحمن بن مهدي في قبولها ، ثم ساق بسنده إليه قوله :

إذا روينا عن النبيﷺ في الحلال والحرام والأحكام شدّدنا في الأسانيد ، وانتقدنا الرجال . وإذا روينا في فضائل الأعمال ، والثواب والعقاب ، والمباحات ، والدعوات ، تساهلنا في الأسانيد .

وروى الخطيب في (الكفاية) بسنده عن أحمد ، قال :

إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام ، تشدّدنا في الأسانيد ، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال ، وما لا يضع حكماً ولا يرفعه ، تساهلنا في الأسانيد .

وقال : أحاديث الرقاق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم .

وعن أبي زكريا العنبري ، قال : الخبر إذا ورد لم يحرم حلالاً ، ولم يحلّ حراماً ، ولم يوجب حكماً ، وكان في ترغيب ، أو ترهيب ، أو تشديد ، أو ترخيص ، وجب الإغماض عنه ، والتساهل في رواته . (الكفاية : ص ١٣٤) .

ولكن إلى أي حد يكون هذا الإغماض والتساهل في الأسانيد ؟ .

فبعض الناس فهموا من هذا أن يُقبل الحديث في الترغيب والترهيب وإن انفرد به من فحش غلطه ، أو كثرت مناكيره ، أو اتهم بالكذب .

بل ذهب بعض جهلة الصوفية إلى تجويز رواية الحديث الموضوع ، المختلق المصنوع ! مادام يرغّب في الخير ، أو يرهّب من الشر ، بل أباح بعضهم لنفسه أن يخترع أحاديث في فضائل سور القرآن وبعض أعمال الخير بهذا الغرض .

ولما ذكّروا بالحديث المتواتر المعروف : « من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قالوا بكل وقاحة : نحن لم نكذب عليه ، وإنما كذبنا له !

وهذا عذر أقبح من ذنب ، لأن مقتضى كلامهم أن دينه ناقص وهم يكملونه ، والله تعالى يقول : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم)[1] .

ومن هنا بيّن المحققون المراد بالتساهل في الأسانيد بعبارة بيِّنة .

يقول العلامة ابن رجب الحنبلي في (شرح علل الترمذي) شارحاً لقوله: « فكل من روي عنه حديث ممن يتهم ، أو يضعف لغفلته ، أو لكثرة خطئه ، ولا يعرف ذلك الحديث إلّا من حديثه فلا يحتج به » قال :

أما ما ذكره الترمذي .. فمراده أنه لا يحتج به في الأحكام الشرعية ، والأمور العملية ، وإن كان قد يُروى حديث بعض هؤلاء في الرقائق والترغيب والترهيب ، فقد رخص كثير من الأئمة في رواية الأحاديث الرقاق ونحوها عن الضعفاء ، منهم : ابن مهدي ، وأحمد بن حنبل .

وقال روّاد بن الجراح : سمعت سفيان الثوري ، يقول : « لا تأخذوا هذا العلم في الحلال والحرام إلّا من الرؤساء المشهورين بالعلم ، الذين يعرفون الزيادة والنقصان ، ولا بأس بما سوى ذلك من المشايخ » .

وقال ابن أبي حاتم : ثنا أبي ، نا عبدة ، قال : قيل لابن المبارك – وروى عن رجل حديثاً – فقيل : هذا رجل ضعيف ! فقال : يحتمل أن يُروى عنه هذا القدر أو مثل هذه الأشياء . قلت لعبدة : مثل أي شيء كان ؟ قال : في أدب ، في موعظة ، في زهد .

وقال ابن معين في موسى بن عبيدة – الربذي ، وهو عابد مشهور ، ضعيف في الرواية – : يكتب من حديثه : الرقائق .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

وقال ابن عيينة : « لا تسمعوا من بقيّة - يعني : بقية بن الوليد - ما كان في سنّة ، واسمعوا منه ما كان في ثـــواب وغيره » .

وقال أحمد في ابن إسحاق - يريد : محمد بن إسحاق صاحب (السيرة) المشهورة - : « يكتب عنه المغــازي وشبهها » .

وقال ابن معين في زياد البكائي: « لا بأس به في المغازي ، وأما في غيرها فــلا » .

قــال ابن رجب :

« وإنمــا يروى في الترهيب والترغيب والزهد والآداب أحاديث أهل الغفلة الذين لا يتهمون بالكذب ، فأما أهل التهمة فيطرح حديثهم ، كذا قال ابن أبي حــاتم وغيره » .

ومن هذه الأقوال وما شابهها نتبين أن أحداً من أئمة الحديث لم يقل برواية أحاديث الترغيب والترهيب ، عن كل من هبّ ودبّ من الرواة ، وإن كانوا مجهولين أو متهمين ، أو فاحشي الغلط .

إنمــا أجازوا رواية بعض الرواة الذين في حفظهم بعض اللين أو الضعف وإن لم يكونوا (من الرؤساء المشهورين بالعلم ، الذين يعرفون الزيادة والنقصان) كما قال الإمام الثوري .

فهؤلاء لا ريبة في صدقهم وعدالتهم ، وإنمــا الريبة في حفظهم ويقظتهم وإتقانهم .

ولهذا ذكر الحافظ ابن حجر لقبول الضعف في الرقائق والترغيب ، شروطاً ثــلاثة ، نقلها عنه الحافظ السيوطي في (تدريب الراوي) :

« الأول : متفق عليه ، أن يكون الضعف غير شديد ، فيخرج من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب ، ومن فحش غلطه .

الثاني : أن يكون مندرجاً تحت أصل عام ، فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً .

الثالث : أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته ، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله ، وإنما يعتقد الاحتياط .

قال : والأخيران عن ابن عبد السلام ، وعن صاحبه ابن دقيق العيد . والأول نقل العلائي الاتفاق عليه » .

والحافظ المنذري ، رحمه الله ، لم يقيد نفسه بهذه الشروط ، بل ذكر في كتابه ما هو شديد الضعف ، وما هو منكر أشد الإنكار ، وربما بين ذلك عقب إخراج الحديث ، وربما سكت ، سهواً أو ذهولاً ، أو غير ذلك .

بل قد نقل المنذري عدداً من الأحاديث في كتابه يرى هو – حسب مقاييسه العلمية – أن الشواهد تدل على أنها موضوعة مصنوعة ، ومع هذا ضمنها كتابه !

من ذلك : حديث معاذ الطويل ، الذي ذكره المنذري في (كتاب الإخلاص) في الترهيب من الرياء ، وقد استغرق أكثر من صفحتين ، ثم قال عقبه : رواه ابن المبارك في الزهد ، عن رجل لم يسمه ، عن معاذ ؛ ورواه ابن حبان في غير الصحيح ، والحاكم وغيرهما ، وروي عن علي وغيره . وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه وبجميع ألفاظه ! ! .

ومن ذلك : ما ذكره في (كتاب الجهاد) في الترغيب في الحراسة في سبيل الله ، وهو ما رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حرس ليلة في سبيل الله أفضل من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة ، السنة ثلاثمائة يوم وستون يوماً ، اليوم بألف سنة » ! ! قال المنذري : رواه ابن ماجه ، ويشبه أن يكون موضوعاً ! .

وفي (كتاب الجنائز) ما روي عن أنس بن مالك مرفوعاً : « من عاد مريضاً ، وجلس عنده ساعة ، أجرى الله له عمل ألف سنة ، لا يعصى الله فيها طرفة عين » .

وقال المنذري : رواه ابن أبي الدنيا في (كتاب المرض والكفارات) ولوائح الوضع عليه تلوح ! ! .

حقائق يجب التنبيه عليها :

ومن اللازم هنا أن أُنبه على عدة حقائق تلقي الضوء على هذا الموضوع ألذي أساء فهمه الكثيرون ، وكدر صفاء الثقافة الدينية لدى الكثيرين ، ممن لا يزالون يوجهون الجماهير الغفيرة من المسلمين .

الحقيقة الأولى :

أن من العلماء قديماً وحديثاً من سوّى بين أحاديث الترغيب والرقائق والزهد وغيرها من أحاديث الأحكام ، فلم يقبل من الحديث إلا الصحيح والحسن .

قال ابن رجب في (شرح العلل) :

« وظاهر ما ذكره مسلم في مقدمته يقتضي ألا تروى أحاديث الترغيب والترهيب إلا عمن تروى عنه الأحكام » (ص ٧٤ تحقيق : د. العتر) فقد شنّع في مقدمة صحيحه على رواة الأحاديث الضعيفة ، والروايات المنكرة .

والظاهر أنه مذهب البخـــاري أيضاً .

وهو مذهب إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين .

وذهب إليه من المتأخرين : ابن حزم من الظاهرية ، والقاضي ابن العربي من المـــالكية ، وأبو شامة من الشافعية .

ومن المعاصرين : الشيخ شاكر ، والشيخ الألباني .

يقول العلامة شاكر في تعليقه على (الباعث الحثيث) لابن كثير ، بعد أن ذكر ما أجازه بعضهم من رواية الضعيف من غير بيان ضعفه بشروطه التي ذكرناها ـ يقول :

« والذي أراه أن بيان الضعف في الحديث الضعيف واجب على كل حال ، لأن ترك البيان يوهم المطلع عليه أنه حديث صحيح ، خصوصاً إذا كان الناقل من علماء الحديث الذين يرجع إلى قولهم في ذلك ، وأنه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال ونحوها في عدم الأخذ بالرواية الضعيفة ، بل لا حجة لأحد إلا بمـــا صحّ عن رسول الله ﷺ من حديث صحيح أو حسن » .

الحقيقـــة الثانية :

أن الشروط الثلاثة التي اشترطها الذين أجازوا رواية الضعيف في في الترغيب والترهيب والرقائق ونحوها ، لم تراع ـ للأسف ـ من

الناحية العملية ، فأكثر الذين يشتغلون بأحاديث الزهد والرقائق ، لا يميزون بين الضعيف وشديد الضعف ، ولا يدققون في أن يكون الحديث مندرجاً تحت أصل شرعي ثابت بالقرآن ، أو بصحيح السنة ، بل ربما يغلب عليهم ـ كما قلت من قبل ـ الشغف بما كان فيه إثارة وإغراب ، ولو كان منكراً شديد النكارة ، أو تلوح عليه دلائل الوضع .

الحقيقـــة الثالثة :

أنهم ذكروا هنا تنبيهاً مهمًّا ، وهو : ألا يقول في الحديث الضعيف : قال رسول الله ﷺ .

قال ابن الصلاح في النوع الثاني والعشرين من (علوم الحديث) :

إذا أردت رواية الضعيف بغير إسناد ، فلا تقل فيه : قال رسول الله ﷺ : « كذا وكذا » وما أشبه هذا من الألفاظ الجازمة ، بأنه ﷺ فعل كذا ، أو بلغنا عنه كذا وكذا ، أو ورد عنه ، أو جاء عنه ، أو روى بعضهم وما أشبه ذلك .

وهــكذا الحكم فيما تشك في صحته وضعفه ، وإنما تقول : قال رسول الله ﷺ فيما ظهر لك صحته بطريقه الذي أوضحناه أولاً والله أعلم .

وما قاله ابن الصلاح وافقه عليه النووي ، وابن كثير ، والعراقي ، وابن حجر ، وكل من كتب في مصطلح الحديث .

ولكن الخطباء ، والمذكِّرين والمؤلفين الذين يروون الأحاديث الضعيفة لا يلقون بالاً لهذا التنبيه ؛ ويصدرون أحاديثهم دائماً بقولهم : قال رسول الله ﷺ .

الحقيقــة الرابعــة :

أنه إذا كان لدينا في الموضوع الواحد حديث أو أكثر من صنف الصحيح أو الحسن ، وفيه كذلك حديث أو أكثر من صنف الضعيف ، فالأجدر بنا أن نستغني بما لدينا من الصنف الأول عن الثاني ، ولا داعي لأن نعبىء حوافظنا من الضعيف ، فإن ذلك سيكون حتماً على حساب الصحيح .

ولهــذا ورد عن بعض الصحابة : ما اجتهد قــوم في بدعة إلّا أضاعوا مثلها من السنة .

وهــذا أمر مشاهد .

ومن هنا روى الخطيب في (الكفـاية) عن الإمام ابن مهدي ، قال : لا ينبغي للرجل أن يشغل نفسه بكتابة أحاديث الضعاف ، فإن أقل ما فيه أن يفوته ـ بقدر ما يكتب من حديث أهل الضعف ـ يفوته من حديث الثقات . . . (ص ١٣٣) .

وإذا كانت طاقة الإنسان في الحفظ والتذكر والاستيعاب والهضم محدودة ولابدّ ، فليصرفها إذن فيما هو أحق وأولى ، ولا يختلف اثنان أن الصحيح أولى بأن توجــه إليه الطاقات وتصرف إليه الجهود والأوقات من الضعيف .

الحقيقــة الخامسة :

أن أحاديث الرقائق والترغيب والترهيب ـ وإن كانت لا تشتمل على حكم يحلل أو يحرم ـ نجدها تشتمل على شيء آخر ، له أهميته

وخطورته ، وإن لم يلتفت إليه أئمتنا السابقون ، وهو ما يترتب عليها من « اختلال النسب » التي وضعها الشارع الحكيم للتكاليف والأعمال ، فلكل عمل ـ مأمور به أو منهي عنه ـ وزن أو « سعر » معين في نظر الشارع بالنسبة لغيره من الأعمال ، ولا يجوز لنا أن نتجاوز به حدّه الذي حدّه له الشارع ، فنهبط به عن مكانته ، أو نرتفع به فوق مقداره .

ومن أشد الأمور خطراً إعطاء قيمة لبعض الأعمال الصالحة ، أكبر من حجمها وأكثر مما تستحقه ، بتضخيم ما فيها من ثواب ، حتى تطغى على ما هو أهمّ منها وأعلى درجة في نظر الدين .

وفي مقابل ذلك إعطــاء أهمية لبعض الأعمال المحظورة ، وتضخيم ما فيها من عقاب بحيث تجوز على غيرها .

وقد ترتب على التهويل والمبالغات في الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب : تشويه صورة الدين في نظر المثقفين المستنيرين ، حيث ينسبون هذا الذي يسمعونه أو يقرؤونه إلى الدين نفسه ، والدين منه براء .

وكثيراً ما أدت هذه المبالغات ـ وخصوصاً في جانب الترهيب ـ إلى نتائج عكسية واضطرابات نفسية ، وكثيراً ما بغّض هؤلاء المبالغون رب الناس إلى الناس ، ونفروهم منه ، وأبعدوهم عن رحابه .

والواجب أن نبقى الأعمال على مراتبها الشرعية ، دون أن نقع في شرك المبالغات التي تشدّنا إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : عليكم بالنمط الأوسط .

الحقيقـــة السادسة :

أن العلماء الذين أجازوا رواية الضعيف بشروطه ، وبعبارة الأقدمين منهم : تساهلوا في أسانيد رواته ، إنما قصدوا بذلك الحث على عمل صالح ثبت صلاحه بالأدلة الشرعية المعتبرة ؛ أو الزجر عن عمل سيِّئ ثبت سوؤه بالأدلة الشرعية ؛ ولم يقصدوا أن يثبتوا بالحديث الضعيف صلاحَ العمل أو سوءه ، ولكن كثيراً من عامة الناس - بل من المحدِّثين أنفسهم - لم يفرقوا بين جواز رواية الضعيف بشروطه وإثبات العمل به.

ولهذا رأينا أكثر بلاد المسلمين يحتفلون بليلة النصف من شعبان ، ويخصون ليلتها بالقيام ، ونهارها بالصيام ، بناءً على الحديث المروي فيها ، عن علي رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا كانت ليـــلة النصف من شعبان ، فقوموا ليلها ، وصوموا يومها : فإن الله تبارك وتعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا ، فيقول : ألا من مستغفر فأغفر لـه . . . الحديث » رواه ابن ماجه ، وأشار المنذري إلى ضعفه ، وكذا ضعّفه البوصيري في زوائد ابن ماجه(١) .

ورأينا أكثر بلاد المسلمين كذلك يحتفلون بيوم عاشوراء ، يذبحون الذبائح ، ويعتبرونه عيداً أو موسماً ، يوسعون فيه على الأهل والعيال ، اعتماداً على حديث ضعيف ، بل موضوع في رأي ابن تيمية وغيره ، وهو الحديث المشهور على الألسنة : « من أوسع على عياله وأهله يوم عاشوراء ، أوسع الله عليه سائر سنته » قال المنذري : رواه البيهقي وغيره من طرق عن جماعة من الصحابة .

---

(١) الحديث عند ابن ماجه برقم ١٣٨٨ ، وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة : اتهمه أحمد وابن حبان والحاكم وابن عدي بأنه يضع الحديث ، كما في (تهذيب التهذيب) .

وقال البيهقي : هذه الأسانيد وإن كانت ضعيفة فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أخذت قوة ، والله أعلم .

وفي هذا القــول نظر .

وقد جزم ابن الجوزي ، وابن تيمية في (منهاج السنة) وغيرهما بأن الحديث موضوع ، وحاول العراقي وغيره الدفاع عنه وإثبات حسنه لغيره ! وكثير من المتأخرين يعز عليهم أن يحكموا بالوضع على حديث !

والذي يترجح لي أن الحديث مما وضعه من وضعه في الردّ على مبالغات الشيعة في جعل يوم عاشوراء يوم حزن وحداد ، فجعله هـؤلاء يوم اكتحال واغتسال ، وتوسعة على العيال ! !

وكثير من المفاهيم المغلوطة ، والبدع المنكرة المنتشرة بين جماهير المسلمين ، ترجع إلى أحاديث ضعيفة ، راجت في عصور التخلف بينهم ، وتمكنت من عقولهم وقلوبهم ، وطاردت الأحاديث الصحاح التي يجب أن تكون ـ بجوار القرآن الكريم ـ أساس الفهم والسلوك ، كما بيّن ذلك الإمام الشاطبي في (الاعتصام) .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام ناصع في بيان المراد بقول العلماء : يُعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ، أو في الترغيب والترهيب ، قــال :

(. . . ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يُحتج به ، فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي ، ومن خبر عن الله

أنه يحب عملاً من الأَعمال من غير دليل شرعي فقد شرع من الدين ما لم يأْذن به الله ، كما لو أثبت الإيجاب أو التحريم ، ولهذا يختلف العلماء في الاستحباب ، كما يختلفون في غيره ، بل هو أصل الدين المشروع .

وإنما مرادهم بذلك أن يكون العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله ، أو مما يكرهه الله بنص أو إجماع ، كتلاوة القرآن ، والتسبيح ، والدعاء ، والصدقة ، والعتق ، والإحسان إلى الناس ، وكراهة الكذب والخيانة ، ونحو ذلك ... فإذا روي حديث في فضل بعض الأَعمال المستحبة وثوابها ، وكراهة بعض الأَعمال وعقابها ، فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه ، إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به ، بمعني : أن النفس ترجو ذلك الثواب ، أو تخاف ذلك العقاب ، كرجل يعلم أن التجارة تربح ، لكن بلغه أنها تربح ربحاً كثيراً ، فهذا إن صدّق نفعه ، وإن كذّب لم يضره .

ومثال ذلك : الترغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات ، وكلمات السلف والعلماء ووقائع العلماء ، ونحو ذلك مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي ، لا استحباب ولا غيره ، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب ، والترجية والتخويف . فما علم حسنه أو قبحه بأَدلة الشرع ، فإن ذلك ينفع ولا يضر ، وسواء كان في نفس الأَمر حقًّا أو باطلاً ، فما علم أنه باطل موضوع لم يجز الالتفات إليه ، فإن الكذب لا يفيد شيئًا ، وإذا ثبت أنه صحيح أثبتت به الأَحكام ، وإذا احتمل الأَمرين روي لإمكان صدقه ولعدم المضرة في كذبه ، وأحمد إنما قال : « إذا جاء

الترغيب والترهيب تساهلنا في الأَسانيد » . ومعناه : أَننا نروي في ذلك بالأَسانيد ، وإن لم يكن محدِّثوها من الثقات الذين يحتج بهم . وكذلك قول من قال : يعمل بها في فضائل الأَعمال ، إنما العمل بما فيها من الأَعمال الصالحة ، مثل : التلاوة والذكر ، والاجتناب لما كره فيها من الأَعمال السيئة .

فإذا تضمنت أَحاديث الفضائل الضعيفة تقديراً وتحديداً ، مثل : صلاة في وقت معين بقراءَة معينة ، أَو على صفة معينة لم يجز ذلك ، لأَن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي ، بخلاف ما لو روي فيه : « من دخل السوق فقال : لَا إِلـه إِلّا الله ... كان له كذا وكذا »[1] . فإن ذكر الله في السوق مستحب لما فيه من ذكر الله بين الغافلين ، كما جاءَ في الحديث المعروف : « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراءِ بين الشجر اليابس »[2] .

فأَما تقدير الثواب المروي فيه فلا يضر ثبوته ولا عدم ثبوته .

فالحاصل : أَن هذا الباب يروى ويعمل به في الترغيب والترهيب ، لا في الاستحباب ، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف على الدليل الشرعي[3] ا.هـ.

---

(١) يشير إلى أن هذا الحديث ضعيف عنده رغم تعدد طرقه ، وسيأتي الكلام عنه في هذه المقدمة .

(٢) جزء من حديث رواه أبو نعيم في « الحلية » عن ابن عمر وضعفه العراقي ، كما في فيض القدير جـ ٣ / ٥٥٩ .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ط الرياض : جـ ١٨ / ٦٥ – ٦٨ .

ورغم هذا البيان رأينا الكثيرين يثبتون التحديدات والتقديرات بالحـــديث الضعيف .

الحقيقـــة السابعة والأخيرة :

أننـــا إذا أخذنا برأي الجمهور في جواز رواية الضعيف في الترغيب والترهيب بالشروط الثلاثة التي ذكروها ، فينبغي - في نظري - أن نضيف إليها شرطين مكملين ذكرتهما في كتابي (ثقافة الداعية) وهما :

١ - ألا يشتمل على مبالغات وتهويلات يمجها العقل أو الشرع ، أو اللغة ؛ وقد نص أئمة الحـــديث أنفسهم أن الحديث الموضوع يعرف بقرائن في الراوي أو المروي .

فمن القرائن في المروي ، بل من جملة دلائل الوضع ، أن يكون مخالفاً للعقل ، بحيث لا يقبل التأويل ، ويلحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة .

أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعي ، (أما المعارضة مع إمكان الجمع فلا) أو يكون خبراً عن أمر جسيم تتوفر الدواعي على نقله بمحضر الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحد !

ومنها : الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو الوعد العظيم على الأمر الحقير ، وهذا كثير في أحاديث القصاص .

ومما يؤسف له أن كثيراً من المحدِّثين لا يطبقون هذه القواعد عندما يروون في الترغيب والترهيب ونحوه ، وربما كان لهم عذر من طبيعة

عصرهم . أما عقلية عصرنا فلا تقبل المبالغات ، ولا تهضمها ، وربما تتهم الدين ذاته إذا ألقي عليها مثل هذه الأحاديث .

ومما تمجه اللغة : كثير من الأحاديث التي رواها بعض القصاص ، مثل : دراج أبي السمح في تفسير كلمات من القرآن الكريم لها مدلولاتها الواضحة في اللغة ، فروى لها تفسيرات هي غاية في الغرابة والبعد عن المدلول اللغوي .

فمن حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً : « ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً ، قبل أن يبلغ قعره » رواه أحمد والترمذي بنحوه إلا أنه قال : « سبعين خريفاً » مع أن « ويل » كلمة وعيد بالهلاك معروفة قبل الإسلام وبعده .

ومثل ذلك ما جاء عند الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه من تفسير « الغي » في قوله تعالى : (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (١) قال : « وادٍ في جهنم » ، وفي رواية « نهر في جهنم » .

وكذلك ما رواه البيهقي وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقاً) (٢) قال « وادٍ من قيح ودم » .

وأغرب منه ما رواه ابن أبي الدنيا عن شفي بن ماتع : أن في جهنم وادياً يدعى « أثاماً » فيه حيات وعقارب . . . إلى آخره ، يشير إلى قوله تعالى : (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً) (٣) .

---

(١) سورة مريم : ٥٩ .
(٢) سورة الكهف : ٥٢ .
(٣) سورة الفرقان : ٦٨ .

وقد ذكر المنذري رحمه الله هذه الأحاديث في « الترغيب والترهيب » .

٢ - ألّا تعـارض دليلاً شرعياً آخر أقوى منها :

مثال ذلك : الأحاديث الضعيفة التي رويت في شأن عبد الرحمن بن عوف : أنه يدخل الجنة حبواً بسبب غنـاه .

فقد يقال : إن مثل هذه الأحاديث تندرج تحت أصل التحذير من فتنة المـال ، وطغيان الغـنى ، ولكن يجب أن نذكر أنها تعارض أحاديث صحيحة جعلت عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة ، فضلاً عن وقائع ثابتة ، وروايات مستفيضة ، تثبت أنه كان من خيار المسلمين ، وكبار المتقين ، وأنه يمثل الغني الشاكر حقًّا ، ولهذا توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض ، وجعله عمر رضي الله عنه في الستة أصحاب الشورى ، وجعل لصوته ميزة ترجيحية على غيره عند تساوي الأصوات .

ولهذا ردّ الحافظ المنذري ما قد ورد من غير ما وجه ، ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، يدخل الجنة حبواً لكثرة ما له ... ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن ، لمنافاة ذلك للثابت من سيرته رضي الله عنه ، وسيأتي كلامه بنصه في هذا التقديم .

أهـداف عملنـا في هذا (المنتقـى) :

ومن هنـا اتجهت إلى عمل هذا (المنتقى) من كتاب الترغيب ، لتحقيـق جملة أهـداف :

١ - الاقتصار على الصحيح والحسن من أحاديث الكتاب ، وحذف

الضعيف منه ، ومن مقتضي هذا : الـكلام على بعض الأحاديث تصحيحاً أو تحسيناً إذا اقتضى الأمر ذلك ، إضافة إلى ما قاله الإمام المنذري أو خلافاً له .

٢ ـ اختصار الكتاب بحذف المكرر منه ، والاكتفاء في المعنى الواحد بحديث واحد إلا إذا تضمن غيره زيادة لها دلالة مهمة .

٣ ـ التنبيه على بعض الأغلاط والأوهام ، التي وجدتها في (الأصل) سواء كانت من الناسخين ، أم الطابعين ، أم مما وهم فيه الإمام المنذري على ما له من علم وفضل .

٤ ـ التعليق على بعض الأحاديث بما يوضح مغزاها ، ويرشد إلى المقصود منها دون إطالة .

٥ ـ عمل فهارس علمية في نهاية الكتاب لإكمال النفع به .

وقد جعلت عمدتي في ذلك الطبعة التي حققها الشيخ : محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله ، وقد ظهرت في ستة أجزاء ، وطبعتها مطبعة السعادة بالقاهرة ، وتمتاز بأن أحاديثها مرقمة ترقيماً مسلسلاً ، وأرقامها هي التي أشير إليها في هذه المقدمة ، كما أنها مصححة تصحيحاً جيداً ، بحيث يندر فيها الأغلاط المطبعية وإن وجدت ، أما من ناحية (التحقيق) فلا يكاد يظهر له أثر ، كما سيتضح ذلك فيما ثبت فيه وهم الحافظ المنذري أو غلطه ، أو حرفته يد الناسخين أو الطابعين .

وقد رجعت عند المقارنة أحياناً إلى طبعة مصطفى الحلبي بتعليق

الشيخ عمارة ، وتعليقاته رغم طولها لا صلة لها بالناحية الحديثية ، ولم تخل من أوهـام وأغلاط كثيرة ، عفا الله عنا وعنه .

وقد أبقيت شرح بعض المفردات من حواشي الشيخ : محمد محيي الدين ، وأشرت إليها بِحَرْفَيْ م م.

وقد حرصت على إبقاء أبواب الكتاب وعناوينه كما وضعها المؤلف رحمه الله ، إلا ألاّ يوجد في باب من الأبواب حديث على شرطنا في الانتقاء ، أي : لا صحيح ولا حسن ، فلا أجد بدًّا من حذفه وذلك مثل :

الترغيب في الاعتكاف من كتاب الصيام ، والترغيب في إحياء ليلتي العيدين ، والترغيب في التكبير في العيد ،وذكر فضله . . والترغيب في الأُضحية وما جاءَ فيمن لم يضح مع القدرة ، من كتاب العيدين والأُضحية ، فلم يذكر المنذري في شيءٍ منها حديثاً توافر له الصحة أو الحسن .

ومثل : الترغيب في تأْديب الأَولاد ، فقد ذكر فيه المنذري ثلاثة أحاديث ، ضعّف اثنين منها ، وسكت عن الثالث ، وهو ما رواه ابن ماجه ، عن ابن عباس ، عن النبيﷺ : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهـم » . وفي إسناد الحديث ، كما قال البوصيري في الزوائد : الحارث بن النعمان ، ليَّنه أبو حاتم ، وإن ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال المناوي في (التيسير) : فيه نكارة وضعف .

وغيرها من الابواب .

ويهمني هنا أن أتحدث بشيءٍ من التفصيل عن الأهداف الثلاثة الأولى ، موضحاً عملي فيها ، وبالله التوفيق .

منهجنا في الانتقاء للصحيح والحسن :

أما الهدف الأول ، فقد كانت فكرتي فيه قديماً (عندما اتجهت نيتي – منذ زمن بعيد – إلى اختصار هذا الكتاب والانتقاء من أحاديثه) : أن أجعل أساس انتقائي لأحاديث الكتاب هو عمل الإمام المنذري نفسه ، فما صحّحه أو حسّنه أو جوّد إسناده ، أو قال في رواته : ثقات ، أو رجاله رجال الصحيح ، أو نقل تصحيح غيره له أو تحسينه فأقره – اعتبرته مقبولاً وصالحاً للانتقاء ، وقد تمثل ذلك في هذه الأقسام :

١ – ما رواه المنذري عن الصحيحين أو أحدهما .

٢ – ما رواه عن الترمذي مما نص على صحته أو حسّنه ، وسكت المنذري عليه .

٣ – ما رواه عن الكتب التي التزمت الصحة ، مثل : ابن خزيمة وابن حبان .

٤ – ما رواه عن الحاكم في مستدركه على الصحيحين ، مما نص على أنه صحيح على شرط الشيخين أو أحدهما ، أو قال : صحيح الإسناد ، ولم يتعقبه .

٥ – ما رواه أبو داود وسكت عنه هو والمنذري ، فقد قال في مقدمة الكتاب : وكل حديث عزوته إلى أبي داود ، وسكت عنه ، فهو كما ذكر أبو داود ، ولا ينزل عن درجة الحسن ، وقد يكون على شرط الصحيحين أو أحدهما .

٦ - ما رواه عن غير هؤلاء ممن لم يلتزم إخراج الصحيح ، مثل : الإمام أحمد في مسنده ، والنسائي وابن ماجه في سننهما ، والطبراني في معاجمه ، والبزار وأبي يعلى في مسنديهما ، وغيرهم ، ونص المنذري نفسه على أنه صحيح أو حسن أو جيد أو نحو ذلك .

٧ - ما رواه عن واحد من هؤلاء ولم ينص على صحته أو حسنه صراحة ، واكتفي بالقول : بأن رجاله رجال الصحيح ، أو رواته ثقات ، ونحو ذلك .

أما ما ضعفه المنذري بالتصريح أو بالإشارة - كتصديره بقوله : « رُوي عن » وأهمل الكلام عليه في آخره ، أو ذكر أن في رواته ضعيفاً أو متهماً - أو قال : فيه مقال ، أو نحو ذلك - أعتبره مردوداً وخارجاً عن دائرة القبول .

وكان ذلك مبنياً على ثقتي المطلقة بالإمام المنذري ، لما رأيت من ثناء العلماء عليه ، وإجماعهم على إمامته في علوم الحديث . هذه كانت فكرتي أولاً ، ولكني بعد ممارسة ومقارنة ومعاناة ، وجدت آخرين من الأئمة والحفاظ والنقاد قد يخالفونه فيما ذهب إليه من توثيق أو تضعيف ، ورأيت كثيراً من الأحاديث التي صححها أو حسنها هو ، أو نقل تصحيحها أو تحسينها عن الأئمة قبله ، وأقرها ، قد حكم عليها من بعده من النقاد الثقات بالضعف ، بل رأيته هو رضي الله عنه قد ردَّ في بعض كتبه الأخرى ، مثل : مختصر أبي داود وحواشيه - بعض ما قبله هنا .

بل رأيته في كتاب (الترغيب) نفسه ، يضعف بعض الطرق - التي صححها غيره - في موضع ، ثم يوردها في موضع آخر ، ساكتاً عليها ،

كأنه مقــر لتصحيحها ، ومثل ذلك يوهم القارىء أن الحديث صحيح في نظر المنذري ، وهو ليس كذلك .

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » صحيح الإسناد ، ا.هـ ، ولم يقل هنا : إنه من طريق دراج عن أبي الهيثم ، وهي طريق ضعيفة ، كما بيَّن ذلك في أكثر من حــديث .

ومثل ذلك حديث أبي سعيد : « استكثروا من الباقيات الصالحات » الحديث رواه المذكورون أيضاً ، والنسائي ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد.

والحديث هو كذلك من طريق دراج ، ولم يشر إلى ذلك ، ولعله اكتفى بما سبق ذكره في المواضع السابقة .

ومما يتعجب منه أن الذهبي أيضاً - في تلخيصه للمستدرك - وافق على تصحيح الحاكم في الموضعين ، مع أنه قال في مواطن أُخرى : دراج واهٍ !

وهذا ونحوه مما لا يكاد يسلم منه عالم ، أو يخلو منه كتاب يؤلفه بشر ؛ وسبحان من له الكمال وحــده .

ولهذا اجتهدت أن أَضُم إلى رأْي المنذري رأْيَ غيره من أئمة الحديث ونقاده ممن جاء بعــده ، فيما أخذته من أحاديث هذا (المنتقي) حتى أزداد اطمئناناً إلى قبول الحديث وقوته .

وكثيراً ما أدتني المراجعة إلى ترك أحاديث كثيرة كنت وضعتها أولاً موضع القبــول عندي[1] .

---

(١) وقد تستغرق المراجعة اياماً طويلة للحديث تنتهي بتركه . وهو جهد كبير غير منظور . وبخاصة اني لم اسجل كل ذلك للاسف .

خذ مثلاً : حديث عائشة رضي الله عنها ، الذي ذكره المنذري (في الترهيب من ترك السنة وارتكاب البدع والأهــواء) :

« ستة لعنتهم ، ولعنهم الله ، وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتي بالجبروت ليذل من أعــز الله ، ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك السنة » .

قال المنذري : رواهُ الطبراني في الكبير ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقــال : صحيح الإسناد ولا أعرف له علة .

وبمراجعة الحديث في المستدرك للحاكم (٤ / ٩٠) وجدته يصححه على شرط البخاري ، ووجدت الحافظ الذهبي يتعقب الحاكم في تصحيحه قائلاً : إسحاق (الفروي أحد رواته) وإن كان من شيوخ البخاري ، فإنه يأتي بطامات ! قال فيه النسائي : ليس بثقة . وقال أبو داود : واهٍ ، وتركه الدارقطني . وأما أبو حاتم فقال : صدوق وعبد الله (هو ابن موهب – راوٍ آخر) فلم يحتج به أحد .. والحديث منكر بمــرة . ا.هـ.

على أن النقــد الداخلي لنص الحديث يبين ضعفه كذلك ؛ ذلك أن متن الحديث نفسه فيه كلمات لا تتفق مع ما جاء في أوله : أن هؤلاء الستة لعنهم – مع النبي ﷺ – كل نبي مجاب ، فالمفهوم إذن أن تكون أعمال هذه الستة أعمالاً يشترك فيها أقوام هؤلاء الأنبياء ، ولكن كلمات الحــديث تجعل من الستة : « المتسلط على أمتي بالجبروت .. المستحل من عترتي ما حرم الله .. التارك للسنة » والمفهوم أنها سنة محمد ﷺ ! .. وهذا ما جعلني أترك الحديث .

ومن هنا حرصت على تقييد إقرار الذهبي للحاكم وموافقته إياه على ما في ذلك من جهد ، ولكنه جهد غير ضائع ، فالحاكم إذا كان واسع الخطو متساهلاً في التصحيح ، كما ذكره المحققون ، فالمنذري والذهبي إمامان من أهل النقد والتمحيص ، كما يدل على ذلك مصنفاتهما الحديثية . فإذا اجتمع الحاكم والمنذري والذهبي على تصحيح حديث ، ففي الغالب لا ينزل عن درجة الحسن المعتدّ به .

وأقول (في الغالب) ؛ لأنه قد يحدث في بعض الأحيان أن يتفق الثلاثة على تصحيح حديث ، ثم يتبين لي بالبحث أن في سنده ضعفاً أو علّة تنزل به عن مرتبة القبول ، ولعل باعث ذلك عندهم التساهل المتوارث في أحاديث الترغيب والترهيب ، فلم ينشطوا لتمحيصها وتحقيقها ، كما في أحاديث الأحكام ونحوها .

مثال ذلك : حديث أبي سعيد الخدري الذي ذكره المنذري (في الترغيب في اتباع الكتاب والسنة) ثم (في البيوع) ونصه : « من أكل طيباً ، وعمل في سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة : قالوا : يا رسول الله ، إن هذا في أمتك اليوم كثير ، قال : وسيكون في قوم[1] بعدي » .

قال المنذري : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وغيره ، والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح الإسناد . والعجب أنه لم يشر إلى أن الحديث في سنن الترمذي ، وقد رواه في أبواب صفة القيامة برقم (٢٥٢٢) .

(١) في سنن الترمذي ، وفي المستدرك : وسيكون في قرون بعدي وكذلك ذكره المنذري في البيوع .

وقد وافقه الذهبي أيضاً على تصحيحه (٤ / ١٠٤) كما وجدت العلامة المناوي في كتابه (التيسير وهو الشرح المختصر للجامع الصغير) ذكر أن إسناده صحيح . ولكني بمراجعة فيض القدير له ، وهو الشرح الكبير للجامع الصغير ، وجدته ينقل عن الترمذي قوله عن الحديث : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . سألت محمداً ـ يعني البخاري ـ عنه فلم يعرف اسم أبي بشر[١] ـ أحد رواته ـ وعرفه من وجه آخر وضعّفه[٢] . ا.هـ. وقال ابن الجوزي : قال أحمد : ما سمعت بأنكر من هذا الحديث ! (الفيض ٦ / ٨٦) .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أبا بشر هذا في (تهذيب التهذيب) في جزء (الكـنى) وأنه أحد رواة الحديث المذكور ، وذكر ما نقله الترمذي عن البخاري : أنه لم يعرفه ، ولم يزد ، وبذلك يكون أبو بشر هذا في عداد المجهولين . فكيف يقبل حديث مثله ؟ !

والعجيب أن الحافظ الذهبي كثيراً ما يصحح الحديث في تلخيص المستدرك ، أو يسكت على تصحيحه ـ على حين يضعفه في كتابه (الميزان) !

كما حرصت أن أرجع فيما نقله المنذري عن ابن ماجه ـ مما انفرد به عن بقية الكتب الستة ـ إلى زوائد ابن ماجه للبوصيري ، أي : زوائده عن عن الكتب الخمسة ، وتعقيباته عليها بالتصحيح ، أو التحسين ، أو التضعيف ، وقد أحسن محقق الكتاب الأُستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

---

(١) في الفيض : أبي بشير ، وهو خطأ مطبعي ، والتصحيح من الترمذي والمستدرك وتهذيب التهذيب.

(٢) الجملة الأخيرة : وعرفه من وجه . . الخ ليست في السنن المطبوعة . انظر حديث رقم ٢٥٢٢ .

رحمه الله بوضع هذه التعقيبات عقب الأحاديث ، كما أحسن بوضع الفهارس التي سهلت الرجوع إلى الكتاب .

فإذا وجدت البوصيري موافقاً للمنذري في توثيق الحديث ، اطمأننت إليه ، وانتقيته ، ألّا إن يظهر لي فيه شيء يوجب التوقف فيه .

وإذا خالفه – وهو يبين السبب عادة – أترك الحديث . وقد وقع لي من ذلك كثير مما حسنه المنذري من أحاديث ابن ماجه ، بل أحياناً مما يجـزم بصحة إسناده .

مثال ذلك : ما ذكره عن أبي أمامة رضي الله عنه عند ابن ماجه ، قال : « عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمرة الأولى ، فقال : يا رسول الله ، أي الجهـاد أفضل ؟ فسكت عنه .. فلما رمى بالجمرة الثانية سأله ، فسكت عنه .. فلما رمى جمرة العقبة وضع رجله في الغرز ليركب ، قال : أين السائل ؟ قال أنا يا رسول الله . قال : كلمة حق تقال عند سلطان جائر » .

قال المنـذري بعد ذكره : رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وهذا هو الحديث (٤٠١٢) من سنن ابن ماجه ، وقد نقل محققه عن « الزوائد » للبوصيري قوله : في إسناده – أبو غالب – وهو مختلف فيه ، ضعّفه ابن سعد ، وأبو حاتم والنسائي ، ووثقه الدارقطني ، وقال ابن عدي لا بأس به . وراشد بن سعيد (أحد رواته) قال فيه أبو حاتم : صدوق (وهذه وحدها لا تكفي لتصحيح حديثه ما لم ينضم إليها تمام الضبط) وباقي رجال الإسناد ثقات .

ولهذا أعرضت عن هذا الحديث ، وأخذت بالحديث الذي ذكره المنذري قبله من رواية النسائي ، وفيه مضمون حديث ابن ماجه مختصراً . وقد ذكر أن إسناده صحيح .

وفي كتاب العلم ذكر المنذري رحمه الله حديث أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم ـ عمل به أو لم يعمل به ـ خير لك من أن تصلي ألف ركعة » .

قال المنـــذري : رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وبمراجعة « سنن ابن ماجه » بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله وجدته ينقل عن « الزوائد » للبوصيري : أنه ضعّف الحديث بضعف راويين في سنده ، وهما : عبد الله بن زياد البحراني ، وعلي بن زيد ابن جدعان . (انظر الحديث : ٢١٩ من ابن ماجه) .

وتكرر هذا في أحاديث كثيرة مما انفرد به ابن ماجه عن الأصول الخمسة الأخرى .. مثال ذلك : حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي ذكره المنذري في الترغيب في البداءة بالخير ليستن به ، والترهيب من البداءة بالشر ، ونصه :

« ما من داع يدعو إلى شيء إلّا وقف يوم القيامة لازماً لدعوته ما دعا إليه ، وإن دعا رجل رجلاً » .

قال : رواه ابن ماجه ورواته ثقـــات .

وفي الزوائـــد : إسناده ضعيف .

ولذلك أعرضنا عنه .

ونحوه ما قاله المنذري عن حديث ابن عمر : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلُقاً . قال : فأي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً » الحديث . قال : رواه ابن ماجه بإسناد جيد (الحديث : ٤٧٩٤ من الترغيب) .

فإذا ذهبنا إلى ابن ماجه نفسه وجدنا في إسناد الحديث : نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس . . ووجدنا البوصيري في الزوائد يقول : فروة بن قيس مجهول ، وكذلك الراوي عنه ، وخبره باطل ، قاله الذهبي في طبقات التهذيب . انظر (سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٢٣ حديث ٤٢٥٩) .

كما اجتهدت فيما نقل المنذري عن الترمذي وأبي داود ، مما حسّنه الترمذي ، أو صححه ، أو سكت عليه أبو داود ، ألّا يكون هناك من العلماء من ردّوا الحديث أو عللوه ، حسبما وقفت عليه .

فقد تبين لي أن المنذري رحمه الله قد يقرّ تحسين الترمذي مثلاً أو تصحيحه ، ثم يظهر أن في سند الحديث ما ينزل به عن درجة القبول .

خذ مثلاً حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر » رواه الترمذي ، وقال : حسن غريب .

ورجعت إلى (الجامع الصغير) فوجدت السيوطي قد رمز له بعلامة الحسن تبعاً للمنذري ، وأقره شارحه المناوي في (فيض القدير) .

ولكن وجدت الشيخ الألباني يضع الحديث في ضعيف الجامع الصغير لا في صحيحه ، وأحال إلى تخريجه للمشكاة (حديث ٥٧٢٩) وبالرجوع إليه وجدته حديثاً آخر . فكان لابد من الرجوع إلى الترمذي نفسه ، والبحث في سند الحديث عنده ، فوجدت الآفة فيه من قبل محمد بن ثابت البناني ، أحد رواته ، فقد أجمعوا على تضعيفه ، كما في (تهذيب التهذيب) وقال الحافظ في ترجمته في (التقريب) : ضعيف .

وأكثر من ذلك ما قال الترمذي فيه : صحيح أو حسن ، ثم يظهر البحث خلاف ذلك .

مثال ذلك حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه : « قلت : يا رسول الله ، إني أكثر الصلاة ، فكم أجعل لك من صلاتي[1] ؟ ، قال : ما شئت . قال : قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، وما زدت فهو خير لك . ثم زاد إلى النصف ، الثلثين ، إلى أن قال : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذن يكفي همك ، ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد والترمذيو الحاكم ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وبمراجعة الحديث في سنن الترمذي وجدت في سنده عبد الله بن محمد ابن عقيل ؛ وقد ضعفه الأكثرون ، وإن احتج به أحمد وإسحاق ، وقال الحافظ في التقريب : صدوق في حديثه لين ، ويقال :تغير بآخره .

وحرصت كذلك فيما أخرجه المنذري عن الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى في مسانيدهم ، والطبراني في معاجمه الثلاثة – وهي الكتب التي تضمنها

(١) معنى العبارة كما قال المنذري : إني أكثر الدعاء ، فكم أجعل لك من دعائي صلاة عليك ؟

(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) للحافظ نور الدين الهيثمي ، وقد طبع في عشرة أجزاء في مصر ، وصور في بيروت - أن أضم إلى رأي الإمام المنذري رأي الهيثمي ، فإذا اتفقا على تقوية الحديث بتصحيح إسناده ، أو تحسينه ، أو تجويده ، أو توثيق رواته ، ونحو ذلك ، اطمأنت النفس إلى قبوله وانتقائه إلا أن أطلع على سبب يُضعفه ، أو أجد مَن نَصَّ على تضعيفه ، فأتركه .

وأما ما خالف فيه الهيثمي المنذري بتضعيف ما وثقه ، فأدعه ، لأن الهيثمي يذكر عادة سبب ضعف الحديث عنده .

واجتهدت فيما رواه الإمام أحمد - مما ليس في الصحيحين - أن أرجع إلى تحقيق العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله للمسند ، إذا كان الحديث في الأجزاء التي حققها وخرج أحاديثها ، وإن كان منهجه التساهل في توثيق بعض الرواة المختلف فيهم ، أو الذين لم يوثقهم غير ابن حبان .

وفي كثير من الأحاديث رجعت إلى الجامع الصغير للحافظ السيوطي ، وشرحيه : الكبير (فيض القدير) والمختصر (التيسير) وكلاهما للحافظ عبد الرؤوف المناوي . كما انتفعت بصحيح الجامع الصغير وزيادته ، وضعيفهما للمحدث الشهير الشيخ ناصر الدين الألباني وكتبه الحديثية الأخرى .

وكثيراً ما كانت مراجعة الحديث الواحد في مظانه المختلفة للاستيثاق من درجته تأخذ مني ساعات ، وربما أياماً ، حتى أطمئن إلى انتقائه ،

أو تركه ، وهذا ما قوى عندي بواعث الاتجاه إلى عمل موسوعة للحديث النبوي ، وخصوصاً لصحاح الأحاديث وحسانها ، تسهل على الباحثين الرجوع إليها بلا معاناة . وهو ما ينوي مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر القيام به بتوفيق الله تعالى وعونه[1] .

وكثيراً ما أدّاني طول المراجعة إلى تبين أوهام وقع فيها الأئمة في التصحيح ، والتضعيف ؛ وكثيراً ما يكون تكرار الوهم من عدد منهم نتيجة لأخذ بعضهم عن بعض دون فحص أو مراجعة .

فقد رأيت الحافظ المنذري في كتاب « الصدقات » يروي حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيَقِ أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة » ثم قال : رواه أحمد بإسناد صحيح .

ثم نظرت في مجمع الزوائد فوجدت الهيثمي (٣ / ١٠٥) يذكر الحديث ، ثم يقول : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

ثم راجعت الجامع الصغير فوجدته ينسبه لأحمد ويرمز له بعلامة الصحة .

ثم راجعت شارحه في فيض القدير (٥ / ٣٥٠) فرأيته يقر السيوطي ، حيث يقول : رمز المصنف لصحته ، وهو كما قال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

وبهذا اطمأن قلبي إلى أن الحديث صحيح . ولكن أردت أن أزداد اطمئناناً ، فرأيت الرجوع إلى تخريج الشيخ شاكر رحمه الله للحديث

(١) قد تم طبع مشروع منهج مقترح لموسوعة الحديث النبوي بقلم المؤلف .

في مسند ابن مسعود من مسند أحمد ، فوجدت الحديث في موضعين منه ، ومداره على إبراهيم بن مسلم الهَجَري عن أبي الأَحوص عن عبد الله . والهجري ضعّفوه ، كما في تهذيب التهذيب ؛ لأَنه كان رفّاعاً ، يرفع الموقوفات ، ولا يميز بين ما كان من حديث عبد الله رضي الله عنه وما كان عن رسول الله ﷺ . ولهذا قال الشيخ شاكر في حديث (٤٢٦٥) : إسناده ضعيف ، لضعف إبراهيم الهجري ، وقد صرح في هذا الحديث باسم أبيه ونسبته . وفي الحديث الآخر (٣٦٧٩) ذكر في السند باسمه فقط « إبراهيم » وقال شاكر : هو الهجري . وضعّف إسناده ، قال : والحديث في مجمع الزوائد ، وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » وهو وهم . لعله ظن أن إبراهيم هو النخعي ! وما أبعد ذلك ! فإن عمار بن محمد (الراوي عنه) لا يدرك إبراهيم النخعي وطبقته ، عمار مات (١٨٢ هـ) والنخعي مات (سنة ٩٦ هـ) وشتان ما بينهما ! قال : وقد تبع السيوطي صاحب الزوائد في ذلك في الجامع الصغير ، ورمز لهذا الحـديث بالصحة ! ! ا.هـ.

فالعجب أن يتفق هؤلاء الأَربعة : المنذري والهيثمي والسيوطي والمناوي على تصحيح الحديث وفيه مثل الهجري . ولكن هذا يحدث حينما يأْخذ العالم عن غيره دون بحث وتفتيش .

ولم يكن عمدتي في الانتقاء هو سلامة السند وحده ، بل ضممت إلى ذلك النظر في المتن أَيضاً ، أَي : في محتوى الحديث ومضمونه : أَيتفق مع أُصول الإسلام العـامة ومفاهيمه الثابتة ، وقيمه المتفق عليها أم لا ؟

ومن هذه المفاهيم ألّا يعارض قاطعاً عقلياً ، ولا حقيقة علمية ، كما لا يعارض قاطعاً شرعياً أو حقيقة دينية سواء بسواء .

وهذا ما جعل علماءنا من قديم يشترطون لصحة الحديث سلامته من الشذوذ والعلة القادحة ، وقد يكون ذلك في المتن كما يكون في السند ، وبذلك سبقوا ما هو مقرر اليوم في نقد النصوص والروايات من حيث مضمونها ، وهو ما يسمونه : النقد الداخلي للنص .

وهذا أمر ثابت ، ولكن بعض الناس يبالغون في استخدامه ، فيردون كل ما تستبعده عقولهم المحدودة بحدود زمانهم وبيئتهم ، وينسون أن الدين إنما يقوم أول ما يقوم على الإيمـــان بالغيب .

من أجل هذا تركت بعض الأَحاديث الّتي قد تقبل من ناحية السند ، ولكنها تحوي في متنها ما يوجب التوقف ، فلم أُدخلها في هذا (المنتقى).

مثال ذلك : حديث ابن ماجه : « اللهم من آمن بي وصدقني ، وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك ، فأَقلل ماله وولده ، وحبب إليه لقاءك ، وعجل له القضاء . ومن لم يؤمن بي ، ولم يصدقني ، ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك ، فأَكثر ماله وولده ، وأَطل عمره » وقد رواه أيضاً بنحوه ابن أَبي الدنيا والطبراني وابن حبان في صحيحه .

وقد تركت هذا الحديث حين رأَيته ينافي نظرة القرآن والسنة إلى المـــال والولد ، وأَنهما نِعَمٌ يثيب الله بها من يعملون الصالحات ، وليست عقوبات يجازي الله بها الكفار المرتكبين للموبقات . وحسبنا قوله تعالى : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً .

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)[1] . كما أنه يتعارض مع صحاح الأحاديث الأخرى الثابتة ، مثل دعائه ﷺ لأنس رضي الله عنه أن يكثر الله ماله وولده ويطيل عمره ، وقوله ﷺ : « ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر » ، وقوله ﷺ لعمرو بن العاص رضي الله عنه : « نعم المال الصالح للمرء الصالح » ، وغيرها كثير .

ومثله : حديث نقادة الأسدي عند ابن ماجه أيضاً ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل يستمنحه ناقة فردّه ، ثم بعثني إلى رجل آخر يستمنحه ، فأرسل إليه بناقة ، فلما أبصرها رسول الله ﷺ قال : اللهم بارك فيها ، وفيمن بعث بها ، قال نقادة : فقلت لرسول الله ﷺ: وفيمن جاء بها ! قال : وفيمن جاء بها . ثم أمر بها فحلبت ، فدرت ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم أكثر مال فلان ، للمانع الأول ، واجعل رزق فلان يوماً بيوم ، للذي بعث بالناقة » قال المنذري : رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وقد تركته كذلك ؛ لأن الله تعالى وعد المنفق بالإخلاف : (وَمَا أَنفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)[2] وكل ملكاً يدعو كل يوم « اللهم أعط منفقاً خلفاً » . فكيف يكون دعاء النبي ﷺ له أن يجعل رزقه يوماً بيوم ؟ !

ربما قيل : حتى لا يشغله المال عن ربه وآخرته ؛ ولكن القرآن وصف رواد المساجد بقوله : (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ..)[3] الآية .

---

(١) سورة نوح : ١٠ – ١٢ .

(٢) سورة سبأ : ٣٩ .

(٣) سورة النور : ٣٧ .

ولقد رجعت إلى ابن ماجه فوجدت صاحب الزوائد يقول : في إسناده البراء ، قد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الذهبي : مجهول .

فالحمـــد لله ، إذ لم يسلم إسناده من مقـــال .

وكذلك ترددت كثيراً عند حديث (الذكر في السوق) الذي ذكره المنذري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل السوق فقال : لا إلٰـــه إلّا الله وحده لا شريك له ، له المـــلك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ـ كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » رواه الترمذي وقال : حديث غريب . (وهذا يعني أنه ضعيف عنده ؛ حيث إنه لم يصفه بصحة ولا حسن) .

قال المنذري : وإسناده متصل حسن ، ورواته ثقـــات أثبات ، وفي أزهر بن سنان خلاف ، وقال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به ، وقال الترمذي ـ في رواية له مكان « وقع له ألف ألف درجة » : « وبني له بيتاً في الجنة » ورواه بهذا اللفظ ابن ماجه وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه ؛ كلهم من رواية عمرو بن دينـار ، قهرمان آل الزبير ، عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن جـــده . ورواه الحاكم أيضاً من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً أيضاً . وقال صحيح الإسناد ، كذا قال : وفي إسناده مرزوق بن المرزبان . . ا.هـ.

والواقع أن هذه الطرق كلها ليس فيها طريق مقبولة أو ســالمة من النقد . وأزهر بن سنان المذكور قال فيه ابن معين : ليس بشيء ، وقال

العقيلي : في حديثه وهم وليّنه أحمد ، وضعّفه ابن المديني جدًّا ، في حديثه هذا . وقال الساجي : فيه ضعف ، وذكره ابن شاهين في الضعفاء كما في تهذيب التهذيب .

فمثل هذا إذا روى مثل هذا الحديث بما فيه من مبالغة في الوعد بالثواب ينبغي ألا يقبل منه . وهكذا فعل الأئمة ، وقد سبق إشارة ابن تيمية إلى ضعف الحديث .

وقد رأيت الشيخ الألباني صحح الحديث في تخريجه لكتاب « الكلم الطيب » لابن تيمية ، بناءً على تعدد طرقه . والذي رأيته من صنيع الأئمة أن مجرد تعدد الطرق لا يكفي للارتقاء بالحديث من الضعف إلى الصحة ، ومن الرد إلى القبول . فكم من أحاديث تعددت طرقها ولم يصححوها .

وهذا الحافظ المنذري بعد أن ذكر حديثاً في شأن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول : (وقد ورد من غير ما وجه ، ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ : أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله » ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن . ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » فأنّى تنقص درجاته في الآخرة أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ؟ فإنه لم يرد هذا في حق غيره ، إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق والله أعلم) [1] .

---

(١) انظر : الترغيب للمنذري . الحديث رقم ٤٥٧٦ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

اختصار الكتـــاب :

أما هـــدف الاختصار ، فقد تحقق جزء منه – وهو الأكبر – عن طريق حذف الضعيف ، حتى إني اضطررت لحذف أبواب لم أجد فيما ذكره المنذري فيها صحيحاً ولا حسناً . وبقي جزء آخر ، وهو حذف المكرر . فمن المعروف أن الحديث الواحد قد يتكرر كثيراً ، لتعدد مواضع الدلالة فيه .

فحديث مثل : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظــله : إمام عادل . . . الحـــديث » .

تكرر عدة مرات ، للاستشهاد به في الترغيب في إحدي خصاله السبعة .

وفي مقابله نجد مثل حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات . وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله تعالى . . الحـــديث » .

وقد رأيت الاكتفاء بذكر الحديث مرة واحدة في أوْلى المواضع به ، ثم الإشارة إليه عند الحاجة للاستشهاد به ، وليس دائماً ، اعتماداً على أن الفهارس في نهاية الكتاب ستعين على الرجوع إلى أي حديث بيسر .

أما متى يذكر الحديث ؟ فتحكمه اعتبارات مختلفة عندي . فأحياناً يذكر في أول المواضع وروداً ، وأحياناً في أظهر المواضع دلالة على المقصود وأحياناً يذكر في الموضع الذي لا توجد فيه أحاديث كثيرة على شرطنا في الكتاب . . . وهـــكذا .

وهنـــاك اختصار آخر بحذف بعض الروايات للحديث الواحد ، التي قد يطيل فيها المنذري كثيراً ، ويتوسع في ذكر عدد منها ، فلم أبق منها ،

إلّا ما اشتمل على فائدة مهمة ، كتقوية الرواية الأُولى ، أو إضافة معنى جديد إليها ، أو نحو ذلك .

مختصر الترغيب لابن حجـر :

هذا وقد كنت قرأت أن للحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني مختصراً لكتاب (الترغيب) طبع في الهند ، فكنت مشوقاً إلى الاطلاع عليه ، لعله يغنيني عن الاستمرار في مهمتي في الانتقاء من الكتاب ، وذلك لما عرف عن ابن حجر من التحقيق والتدقيق ، كما يبدو ذلك واضحاً في شرح البخاري ، وفي كتب التخريج ، وكتب الرجال التي صنفها .

ولكني حينما اطلعت على الكتاب بتحقيق ثلاثة من علماء الهند ، على رأسهم : المحدث الشهير الشيخ حبيب الرحمن الأَعظمي ، لم أَجده وافياً بالغرض الذي أنشده منه .

ومما يؤخذ على اختصار شيخ الإسلام ابن حجر للكتاب جملة أُمور :

١ ـ أنه بالغ في الاختصار بحيث بلغ عدد أَحاديث الكتاب كله ٨٥٥ (خمسة وخمسين وثمانمائة حديث) من مجموع ٥٤٧٢ (اثنين وسبعين وأَربعمائة وخمسة آلاف حديث) حسب ترقيم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رحمه الله : أي : أنه اختصره من حيث عدد الأَحاديث إلى أَقل من السدس .. وأَما من حيث عدد الصفحات فقد اختصر في جزء واحد بلغ ٢٢٥ صفحة على حين يقع الأَصل حسب طبعة الشيخ محيي الدين ـ في ستة أَجزاء ، يزيد كل منها على ثلاثمائة صفحة .

٢ ـ أنه لم يكمل الكتاب انتقاءً واختصاراً فقد انتهى بكتاب الحدود ، فلم يذكر فيه كتاب البر والصلة ، ولا كتاب الأَدب ،

ولا كتاب التوبة والزهد ، ولا كتاب الجنائز وما يتقدمها ، ولا كتاب البعث وأهوال يوم القيامة وصفة الجنـــة والنار ... إلخ .

٣ ـ أنه أبقى على بعض الأحاديث التي فيها مقال وكلام في ثبوتها ، ولا أدري لم أبقى عليها ، مع أنه علق عليها بما يفيد عدم ثبوتها عنده ، مثال ذلك : الحديث رقم (٨٥٠) الذي رواه الحاكم من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : « بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ... الحديث » فقد ذكر الحافظ الحديث بطوله ، وعزاه إلى الحاكم ونقل تصحيحه له ، وعلق عليه بقوله : كذا قال .

٤ ـ أنه لم يكتب مقدمة للكتاب ، يشرح فيها هدفه من اختصاره ومنهجه فيه ، حتى نعلم منها لمـاذا حذف ما حذف ، ولمـاذا أبقى ما أبقى ؟ هل المقصود تقليل حجم الكتاب ، وانتقاءُ أصلح ما في الأصل ولو كان هذا الأصلح ضعيفاً ، بناءً على أن الضعيف يعمل به في مجال الترغيب والترهيب ؟ كأن هذا هو الظاهر من عمله .

وهــل نقله التحسين والتصحيح لحديث ما ، كما كان في الأصل ، وسكوته عليه يعني موافقته على ذلك ؟

هذا هو المتبادر ، مادام لم يعقب عليه .

هذا مع أن كثيراً مما نقله من تحسين الترمذي ، أو تحسينه وتصحيحه (حسن صحيح) أو تصحيح الحاكم ، أو ابن حبان ، أو غيرهم ، فيه

نظر ظاهر ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولعله هو نفسه قد بين ذلك في كتبه الأُخرى ، مثل تلخيص الحبير ، وتخريج الهداية ، وتخريج الأَذكار ، وتخريج الكشاف ، وفتح الباري وغيرها .

والعجيب أنه يحذف أَحياناً تعقيبات المنذري ، مع أَهميتها في بيان درجة الحديث ، كما في الحديث (رقم ٢٠) من المختصر . فقد ذكره المنذري عن عمرو بن عوف مرفوعاً : « إني أَخاف على أُمتي من ثلاث .. الحديث » ، وقال : رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله ، وهو واهٍ ، وقد حسنها الترمذي في مواضع ، وصححها في موضع ، فأنكر عليه ، واحتج بها ابن خزيمة في صحيحه .

حذف ابن حجر ذلك كله ، واكتفى بأَن ذكر في أَول الحديث : عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أَبيه عن جدّه ، وذكر الحديث .

وهكذا فعل في الحديث رقم (٢٢) عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أَبيه عن جده ، وذكر الحديث ثم قال : أَخرجه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن . وسكت عليه . وحذف قول المنذري : كلاهما من طريق كثير بن عبد الله .. إلخ . وتعقيب المنذري على قول الترمذي : (حسن) بقوله : بل كثير متروك وواهٍ كما تقدم ، ولكن للحديث شواهد . ا.هـ. وما أَظن ابن حجر يخالف المنذري في ذلك ، كما هو معلوم من كتبه ، وأقربها (التقريب) .

هذا وربما يجد القارىءُ بعض الأَحاديث مكرراً ، سهواً مني حيناً ، وقصداً في بعض الأَحيان ، لأَن المكرر فيه زيادة في متنه تتعلق ببابه

المذكور فيه ، أو لأنه من طريق آخر يشد أزر الطريق السابق ، أو لإضافة شيء جديد في تخريجه ، أو نحو ذلك . وهذا كله قليل .

وأيضاً ، ربما فاتني بعض أحاديث كان ينبغي أن تكون في هذا المنتقي ، غفلة مني ، أو لأني قدرتها من الضعيف ولم تكن كذلك ، وهو قليل أو نادر ، وغير مؤثر في بنيـــة الكتاب .

وكذلك ربمـــا أبقيت أحاديث ليست على شرط الكتاب ، ذهولاً مني ، أو لاختلاف في التوثيق والتضعيف ، أو لأني أردت التعليق عليها وبيان الرأي فيها ، أو لأنها تحتمل التحسين والتقوية ، وخصوصاً في الشواهد والمتابعات ، فالتساهل فيها معروف ، وصحيح مسلم نفسه فيه شيء من ذلك . المهم ألا تحرم حلالاً ، أو تحل حراماً ، أو تضع حكماً أو ترفعه ، وألا يكون فيها ما يناقض الأصول ، أو يخالف العقول ، أو يبـــاين النقول .

تصحيح الأغـــلاط والأوهـــام :

لم يكن من أهداف عملي في الكتاب تحقيق نصوصه ، اعتماداً على أن الكتاب قد طبع ونشر عدة مرات ، وتداوله العلماء في شتى أقطار الإسلام ، والأصل في مثل هذا أن يؤخذ مأخذ القبول والتسليم .

ولهذا ركزت في بادىء الأمر على مجرد الانتقاء من الكتاب المتداول كما هو ، ثم تبين لي بالممارسة أن في الكتاب أغلاطاً وأوهاماً كثيرة ، أقرتها الطبعات المختلفة ، من طبعة الشيخ منير الدمشقي ، إلى الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، إلى الشيخ مصطفى عمارة ، رحمهم الله جميعاً .

وبعض هذه الأَغلاط من عمل النساخ ، الذين قلما يخلو كتاب من أَثر أَيديهم في تصحيف بعض الكلمات أو تحريفها ،وكم جنوا على العلم ، كما تجني المطابع اليوم ، إذا لم يكن معها تصحيح جيد يقوم به مختصـــون .

وبعضها من أَوهام الإمام المنذري نفسه ، على علو قدره ، وجلالته في الحديث وعلومه ، كما تشهد بذلك مصنفاته ، وكما شهد له بذلك جهابذة هذا العلم .

ومرجع ذلك هو القصور الذاتي للبشر ، مهما بلغت مرتبتهم من العلم ، والإمام المنذري إمام وعلم من الأَعلام ، ولكنه بشر ، يعرض له الذهول والسهو والوهم ، وكل مؤلف لابد أَن يعرض له أَوهام وأَخطاء ، كثيراً ما يستدركها هو على نفسه ، إن طال به الأَجل ، وواتاه التوفيق ، وكثيراً ما يستدركها عليه غيره في حياته أَو بعد مماته ، من هو مثله أَو دونه في العلم والفضل ، فقد يوجد في المفضول مالا يوجد في الفاضل ، وقد قال الهدهد لسليمان عليه السلام : (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) [1] !

أَضف إلى ذلك أَن المنذري رحمه الله قد أَملى هذا الكتاب الكبير إملاءً على بعض تلاميذه من حفظه دون رجوع إلى كتاب ! وعزا الأَحاديث إلى مصادرها ومخرجيها ، على تعدد رواياتها ، واختلاف أَلفاظها ، مع بيان درجتها من الصحة والحسن أَو القوة والضعف . وما في أَسانيدها من بعض الرواة المختلف فيهم .

(١) من الآية ٢٢ من سورة النمل .

وهذه إحدى عجائب هذه الأُمة ، وما أُوتيه علماؤها من مواهب الحفظ النادر .. فلا غرو أَن يقع في هذا الإملاء بعض الأَوهام ، وجل من لا يسهو .

وقد قال المنذري رضي الله عنه ، بعد آخر حديث في كتاب (الترغيب والترهيب) :

(وقد تم ما أَرادنا الله به من هذا الإملاء المبارك ، ونستغفر الله سبحانه مما زل به اللسان ، أَو داخله ذهول ، أَو غلب عليه نسيان ، فإن كل مصنف ـ مع التؤدة والتأَني وإمعان النظر وطول التفكر ـ قل أَن ينفك عن شيء من ذلك ، فكيف بالمملي مع ضيق وقته وترادف همومه ، واشتغال باله ، وغربة وطنه ، وغيبة كتبه ؟ ! وقد اتفق إملاء عدة من الأَبواب في أَماكن كان الأَليق بها أَن تذكر في غيرها ، وسبب ذلك عدم استحضارها في تلك الأَماكن وتذكرها في غيرها ، فأَمليناه حسب ما اتفق ، وقدمنا فهرست الأَبواب أَول الكتاب لأَجل ذلك ، وكذلك تقدم في هذا الإملاء أَحاديث كثيرة جداً صحاح وعلى شرط الشيخين أَو أَحدهما . وحسان لم ننبه على كثير من ذلك ، بل قلت غالباً : إسناده جيد ، أَو رواته ثقات ، أَو رواة الصحيح ، أَو نحو ذلك ، وإنما منع من النص على ذلك تجويز وجود علة لم تحضرني مع الإملاء ، وكذلك تقدم أَحاديث كثيرة غريبة وشاذة متناً أَو إسناداً لم أَتعرض لذكر غرابتها وشذوذها) .

وهـــذه الأَوهام التي وقعت في الأَصل المطبوع تتمثل في عدة أُمور منها :

١ - عزو الحـديث إلى غير من أخرجه ، كحديث : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » عزاه إلى الصحيحين ، وهو في البخاري وحده ، وإلى النسائي ، ولم يعزه غيره إليه ، وغير ذلك من الأحاديث .

على أن الإمام المنذري رحمه الله حين يعزو حديثاً إلى البخاري أو مسلم أو غيرهما ، يعني أصل الحديث لا لفظه . وقد يتساهل في ذلك كثيراً ، مع الاختلاف الكبير في الألفاظ ، مما أنكره عليه بعض الحفاظ ، وبخاصة البرهان الناجي في (عجالته) .

٢ - التقصير في عزو الحديث كأن يعزوه إلى مصدر أدنى ، وهو في الأعلى ، كأن ينسبه إلى مستدرك الحاكم ، أو معاجم الطبراني ، أو مسند أبي يعلى أو البزار ، وهو في مسند أحمد أو أحد الصحيحين ، أو أحد الكتب الستة ، أو ينسبه إلى كتاب أو كتابين ، وهو في أكثر منها .

٣ - نسبة الحديث إلى غير صحابيه كأن ينسب إلى عبد الله بن عمر ، وهو من حديث عبد الله بن عمرو ، أو العكس . أو ينسب إلى أبي هريرة ، وهو لأبي أمامة ، ونحو ذلك .

٤ - تفسير بعض الكلمات بغير المراد منها .

٥ - زيادة بعض الكلمات أو حذفها ، أو تصحيفها ، أو تحريفها ، خلافاً للأصول المنقولة عنها . ومن ذلك تصحيف أسماء بعض الرواة من الصحابة أو غيرهم ، وذكر عبارة (رضي الله عنه) لمن يذكر في أول الحديث وإن لم يكن صحابياً ، وهذا من عمل الناسخين ولا ريب ، لعدم تفرقتهم بين الصحابي وغيره . وقد التزمت في هذه الأمور ونحوها

بإثبات الصواب في الصلب ، والإشارة في الحاشية إلى ما كان في الأَصل المطبوع ، ولم أفعل العكس ، خشية أَن ينقل بعض الناس ما في الصلب . دون أن يتأَمل ما في الهوامش . إلى غير ذلك مما يرى قارىء الكتاب التعليق عليه أو على بعضه في حواشيه .

ولقد انتفعت في هذا المجال بكتاب الحافظ الناقد برهان الدين إبراهيم ابن محمد بن محمود الدمشقي (ت ه) الملقب بـ (الناجي) المسمى (عجالة الإملاءِ المتيسرة من التذنيب على ما وقع للحافظ المنذري من الوهم وغيره في كتابه الترغيب والترهيب) وهو كتاب جيد يدل على فضل مؤلفه ، ورسوخ قدمه في علوم الحديث واللغة وغيرها . وإن كان يشتد في النقد أَحياناً على المنذري ، رحمهما الله جميعاً . ويقف متعجباً في بعض الأَحيان من بعض الأَخطاءِ ، كيف تقع من مثل المنذري في حفظه وعلمه ؟ وبخاصة أَنه ينص على ما يناقضها في كتبه الأُخرى ، مثل : مختصر سنن أَبي داود وحواشيه ! ولكن الكمال لله وحده .

وقد عرفت هذا الكتاب من فهارس بعض المكتبات بالهند ، ولم يتح لي تصويره ، ثم رأَيته في فهرست المكتبة الأَلمانية في برلين الذي ترجمه إلى العربية الأَخ الأُستاذ الدكتور : محمود زقزوق بتكليف من مجلس إدارة مركز بحوث السنة والسيرة النبوية بجامعة قطر ، وطلبت منه تصوير نسخة منه ، ففعل جزاه الله خيراً .

ولا ريب أَني استفدت منه كثيراً ، ونقلت بعض المهم من تعقيباته واستدراكاته وإن لم أَستوعب ، طلباً للاختصار ، كما أَن بعض الكتاب

كان قد دفع إلى المطبعة قبل وصول الكتاب إليّ . ومن العجب أن الكتاب فُقد مني بعد ذلك ولم أجده حتى كتابة هذه المقدمة وتسليمها للمطبعة .

ومن الغريب أن الحافظ المنذري رحمه الله ، قد يعتريه الذهول أو الوهم في موضع من الكتاب ، فيعزو الحديث إلى غير من رواه ، أو يقصر في عزوه ، أو في بيان درجته ، ثم نجده في موضع آخر يذكره على الصواب .

ومن أمثلة ذلك : حديث ذكره المنذري في كتاب (الجهاد) في (الترهيب من الغلول) عن ثوبان رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « من جاءَ يوم القيـامة بريئاً من ثلاث ، دخل الجنة : الكبر ، والغلول ، والدَّين » قال : رواه النسائي وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

وكنت قد انتقيت هذا الحديث في (الجهاد) وعلقت عليه في الحاشية بما يـلي :

عزاه إلى النسائي وحده ولم أجده في مظانه من (سنن النسائي) ولم يعزه إليه في (ذخائر المواريث) ولا في (المعجم المفهرس) . وقد رواه الترمذي في (السير) برقم (١٥٧٢) عن ثوبان ، وسكت عليه ، (خلافاً لمـا ذكره ابن حجر في مختصر الترغيب : أنه صححه فلعله من اختلاف النسخ) قال : وفي الباب عن أبي هريرة وزيد بن خـالد الجهني . ثم رواه بطريق أخري أصح عن ثوبا ن أيضاً ، بلفظ : « من فارق الروح الجسد (أي منه) وهو بريء من ثـلاث : الكنز والغلول والدَّين ـ دخل الجنة » .

هكذا (الكنز) بدل (الكبر) وهو أوفق ، لأن الثلاثة تصرفات تتعلق بالمـال ، ورواه ابن ماجه في الصدقات برقم (٢٤١٢) وأحمد في المسند (٥ / ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١) والدارمي في البيوع . ا.هـ.

هذا ما ذكرته في الحاشية ، ثم وجدت المنذري رحمه الله في كتاب (البيوع) في الترهيب من الدين ، يذكره على الصواب باللفظ الأخير : فاكتفيت بانتقائه هناك وتركته في الجهاد . والعجيب أنه لا يذكر هناك النسائي ، ولا يستدرك على نفسه ، بل يقول : رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، وتقدم لفظه .. الخ .

وهذا قوّى عندي احتمال أن يكون ذكر النسائي هناك – مكان الترمذي – من أوهام النساخ أو تصحيفهم . والله أعلم .

ومن هنا اجتهدت – ما أسعفني الوقت والجهد والتوفيق – أن أرجع إلى الكتب الأصلية المطبوعة ، التي استمد منها المنذري كتابه ، وخصوصاً الصحيحين ، والسنن الأربعة ، ومسند أحمد ، وصحيح ابن خزيمة ، وصحيح ابن حبان – أعني موارد الظمآن في زوائد ابن حبان – ومستدرك الحاكم مع تلخيصه للذهبي ، وأن أرجع إلى مجمع الزوائد للهيثمي فيما يتعلق بما أسنده المنذري إلى أحمد والبزار وأبي يعلى في مسانيدهم ، والطبراني في معاجمه الثلاثة . وقد عنيت بذلك أكثر في الجزء الثاني من الكتاب .

وقد اعتمدت الطبعات المحققة والمفهرسة من هذه الكتب كلما تيسرت مثل : طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة لصحيح مسلم ، والموطأ ، وسنن ابن ماجه بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي – رحمه الله – وطبعة

حمص لسنن أبي داود والترمذي بتحقيق الأُستاذ عزت الدعاس ، وطبعة دار المعارف بالقاهرة للأَجزاءِ التي حققها العلامة الشيخ أحمد شاكر من مسند الإمام أَحمد ، وطبعة (موارد الظمآن) بتحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمـزة .

مـاذا يجـد القـاريء في هذا المنتقـى ؟ :

وَأَخيراً ، ماذا يجد القارئ لهذا (المنتقى) ؟ . . والجـواب : إنه سيجد فيه الكثير الطيب إن شاءَ الله :

(أ) : سيجد القاريءُ لهذا المنتقي من أَحاديث الترغيب والترهيب مجموعة طيبة من روائع التوجيه ، وحقائق المعرفة ، وجوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وشوامخ الأَدب ، تكلم بها رسول لا يصدر عن شهوة ، ولا ينطـق عن هـوى ، رسول اصطنعه الله تعالى لنفسه ، وصنعه على عينه ، وأَدَّبه فأَحسن تأَديبه . (صلى الله عليه وسلم) .

هذه الأَحاديث الشريفة بيان وتفصيل لمـا جاءَ في القرآن االكريم ، فهي أَولى أَن يقال فيها : إنها تنزيل من التنزيل ، وقبس من نور الذكر الحـكيم .

وبهذا يتبين لنا ضلال أُولئك الذين فرغت عقولهم من العلم ، وقلوبهم من اليقين ، فزعموا الاستغناء عن السنة بالقرآن !

والحق : أَن هؤلاءِ الدخلاءِ على العلم خالفوا السنة ، وخالفوا القرآن جميعاً .

فالقرآن نفسه يأمرنا في غير آية بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ معاً ، ويقول : (مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) (١) .

ويرشدنا إلى أن الرسول ﷺ هو المبين للقرآن بأمر ربه : (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٢) .

إن هؤلاء المغرورين يريدون أن يحرمونا من هذه الكنوز النبوية بشبهات واهية فنّدها علماء الأمة قديماً وحديثاً .

وقد بيّن الإمام الشاطبي رحمه الله أن الله الذي تكفل بحفظ القرآن ، حفظ معه السنة ضمناً لأن حفظ المبيَّن يقتضي حفظ البيان ، والسنة بيان القرآن .

ودون هؤلاء قوم ردّوا الأحاديث الصحاح التي اتفقت عليها الأمة ، وتلقتها بالقبول ، بمجرد أوهام لاحت لأذهانهم القاصرة ، أو لشبهات قرأوها للمستشرقين والمنصِّرين ، وفروخهم ، فأخذوها قضايا مسلمة ، ولم يكلفوا أنفسهم سؤال أهل الذكر والرجوع إلى مصادر العلم ، ولكل علم أهله (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) (٣) .

وأبرز ما يتصف به هؤلاء هو الجرأة التي لا تصدر من عالم يقدّر العلم وأهله ، ويعرف لكل ذي فضل فضله ؛ فهم يتطاولون حتى على مشاهير الأئمة ، بل على علماء الصحابة رضي الله عنهم .

---

(١) سورة النساء : ٨٠ .
(٢) سورة النحل : ٤٤ .
(٣) سورة فاطر : ١٤ .

ومن أعجب ما سمعته أن بعضهم أنكر أشهر حديث يحفظه المسلمون، كبارهم وصغارهم، في قراهم ومدنهم، وهو حديث: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـٰـه إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحَجِّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا» وهو حديث مشهور متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما، كما رواه غيره من الصحابة.

وما حجة من قال ذلك؟ قال: الحديث لم يذكر الجهـاد!

ولو كان الأَمر كما فهم هذا الدّعي، لوجب أن ينكر من القرآن الآيات الكثيرة التي وصفت المؤمنين والمتقين وعباد الرحمن وأُولي الأَلباب، فلم تجعل من أوصافهم الجهـاد.

ومن قرأ وصف المتقين في مطلع سورة البقرة، أَو وصف المؤمنين في مطلع سورة (المؤمنون) أَو وصف عباد الرحمن في أَواخر سورة الفرقان، ونحوها من سور القرآن مكية ومدنية، لم يجد الجهـاد مذكوراً في كل حال، إنما يذكر حين يقتضيه المقام، كما في سورة التوبة ردًّا على القاعدين، وفي سورة الحجرات ردًّا على الأَعراب الذين ظنّوا الإِيمان مجرد دعوى تُدّعى أَو كلام يقال.

ومثل ذلك الذي ردّ الحديث الصحيح الذي رواه الإِمام البخاري في جامعه: «إن الحبشة لعبوا بحرابهم في مسجد النبي ﷺ في يوم عيد...» إلخ الحديث.

وشبهة هذا المتطاول في ردِّ هذا الحديث أن المساجد ليست للعب والرياضة وإنما هي للصلاة والعبادة! كأَنما حسب مسجد الرسول الكريم ﷺ بالمدينة

مثل مساجدنا الضيقة المفروشة بالسجاد ، والمضاءة بالثريات الكهربائية المدلاة فلا يتصور فيها مجال للعب والرياضة .

ثم إنه تصور مهمةً للمسجد في مخيلته هو ، انتزعها مما صار إليه المسلمون في عصور التخلف ، حين عزلوا المسجد عن الحياة ، ثم حاكم الحديث الصحيح إلى هذه الصورة الوهمية في دماغه ، فردّه بكل جرأة ليستبقي ما في ذهنه هو سليماً لا غبار عليه .

وكان الواجب عكس ما صنعه تماماً : كان عليه أن يرسم صورة لمهمة المسجد من واقع ما كان عليه الحال في عهد النبوة ، مما ثبت بصحيح السنة ، ثم يُحاكم ما عليه المسلمون اليوم في شأن المساجد إلى هذه الصورة الصحيحة .

(ب) : ويلمس القارئ لهذا المنتقى شمول الإسلام ، وتكامل تعاليمه ، فليس هو مجرد عقيدة لاهوتية ، ولا محض شعيرة تعبدية ، إنه عقيدة وعبادة ، وخُلُق وسلوك ، وتنظيم ومعاملة ، ودولة وسياسة ، وحكم وقضاء .

ولا غرو أن تطالع في أبواب الكتاب : العلم والإخلاص واتباع الكتاب والسنة ، إلى جوار الطهارة والصلاة ، والزكاة والصدقات ، والصيام ، والحج والعمرة ، وتلاوة القرآن والأذكار والدعوات ؛ كما تقرأ فصولاً عن الجهاد في سبيل الله ، ثم تقرأ عن البيوع والمعاملات وما يجب أن تكون عليه ، وبعدها البر والأدب والصلة ومكارم الأخلاق ، إلى جوار القضاء والحكم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى أبواب

الزهد والتوبة والتذكير بالموت وما بعده من بعث وحساب وميزان وجنة ونار .

ومن قرأ أبواب الكتاب وفهارسه تبين له هذا الشمول والتكامل ، أما من قرأ الكتاب ذاته ، فسيعلم ذلك علم اليقين .

ولا غرو أن يستفيد من هذا الكتاب الواعظ والخطيب ، كما يستفيد منه الفقيه .

وأذكر أنني استفدت من أصل هذا الكتاب عندما كنت أكتب عن (الحلال والحرام في الإسلام) منذ أكثر من ربع قرن ، وكذلك عندما كنت أكتب عن فقه الزكاة ، فالحديث النبوي هو المصدر الثاني للتشريع والتوجيه في الإسلام .

(ج) : ويجد المسلم في هذا الكتاب ثروة من البيان والأدب الرفيع والبلاغة العليا تمثل القمة البشرية التي تجمع أسمى المعاني في أجمل صور الأداء ، وأرفع أساليب التعبير .

ويستطيع رجل الأدب ، ودارس البلاغة أن يجد في هذا المجموع الشيء الكثير ، مما ينير العقل ، ويهز القلب ، ويجمع بين إمتاع الأسماع ، وتغذية الألباب ، وتحريك المشاعر .

يجد فيه الكنايات النبوية التي لم تجر على غير لسانه ﷺ ، مثل قوله : « الكافر يأكل في سبعة أمعاء » كناية عن الشراهة والنهم ، و « من يضمن لي ما بين لحييه (كناية عن الفم) وما بين رجليه (كناية عن الفرج) أضمن له الجنة » .

و « ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً » كناية عن رفضها وعدم قبولها .

ويجد فيه الاستعارات والمجازات البليغة والتشبيهات المنتزعة من البيئة التي تجسد المعنى تجسيداً ، مثل قولهﷺ :

« إن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » . وقوله ﷺ :

« صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

(د) : ويجد الداعية والمربي في هذا المجموع من أدب الدعوة ، ومناهج التربية وطرائق التوجيه ، ما يتضمن أحسن ما جاءت به دراسات هذا العصر وفلسفاته من مزايا ومحاسن ويتنزه عما يؤخذ عليها من آفات ونقائص .

إننا نجد فيه الدعوة بضرب الأمثال وتشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو كثير ، ونجد فيه الدعوة بحكاية القصص ، وأول حديث في الكتاب هو قصة الثلاثة أصحاب الغار الذين ذكروا باعتبارهم مثلا عليا في الإخلاص لله سبحانه .

ونجد فيه مراعاة الفروق بين الأفراد ، ومخاطبة كل فرد بما يلائمه ، ولهذا اختلفت أجوبتهﷺ للسائلين عن الأمر الواحد باختلاف أحوالهم .

ونجد فيه استخدام طريقة الحوار ، والسؤال والجواب ، مثل : « أيكم مال وارثه أَحب إِليه من ماله » ؟ « ... « أَلا أُنبِئُكُم بِأَكبر الكبائر ؟ .. » « أتدرون من المفلس ؟ » .

ونجد فيه استخدام الإِشارة الحسية لترسيخ المعنى في ذهن السامع ، مثل : « أَنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وأَشار إِلى السبابة والوسطي . . « التقوى هٰهنا » وأَشار إِلى صدره .

إِلى غير ذلك من الأَساليب التي لا يتسع هذا المقام لها [1] .

هذا من حيث الشكل والأُسلوب ، إِما من حيث المضمون والمحتوى فسيجد ثروة طائلة لم يؤثر مثلها عن أَي نبي من الأَنبياء ، ولا عن أَي حكيم من الحكماء ، كما لا يجدها لدى أَي فيلسوف من كبار الفلاسفة القدامى أَو المحدَثين ، ولا يستغني عن الاقتباس منها ، والاغتراف من مناهلها واعظ أَو معلم أَو محاضر أَو كاتب ، مهما علا كعبه ، واتسع أُفقه .

(هـ) : وأَخيراً ، يجد المسلم في هذا (المنتقى) حافزاً أَي حافز ، يدفعه لنصرة الحق ، وفعل الخير وطاعة الله ورسوله ، ووازعاً أَي وازع ، يزعه عن تأْييد الباطل ، وفعل الشر ، ومعصية الله ورسوله .. (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) [2] ، (وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا) [3] .

---

(١) انظر : فضل التعليم ومبادئه وقيمه من كتابنا « الرسول والعلم » ، نشر مؤسسة الرسالة – بيروت . ودار الصحوة – القاهرة .

(٢) سورة الأحزاب : ٧١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

ولا أنسى أن أشكر في ختام هذه المقدمة للأخ الدكتور: محمد السنباطي ـ الأستاذ المساعد بكلية الشريعة بجامعة قطر (سابقا) ـ على ما قام به من جهد في الإشراف على طباعة الجزء الأول من هذا الكتاب، وإخراجه، جزاه الله خيراً، وجزى كل من أسهم بمساعدة في إبراز هذا (المنتقي) على هذه الصورة التي أرجو أن تحقق ما أردت من عملي فيه.

وأخص بالذكر (مطابع الدوحة الحديثة) التي أظهر المسئولون فيها روحاً طيبة، وتعاوناً صادقاً، شكر الله لهم، وأحسن مثوبتهم.

كما أنوه بما أبداه ابننا وخريجنا النابه: عابد الشيخ محمد، من حسن فهم، وصدق استجابة، لما كلفته به من مراجعات في الجزء الثاني من الكتاب، فكان عند حسن الظن به، وفقه الله حتي يحقق ما نأمله فيه من خير للعلم وللإسلام(١).

أسأل الله تعالى أن يجعل عملي في هذا الكتاب خالصاً لوجهه، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وكل من أسهم فيه، وأن يغفر لي ما قصرت فيه، ويبارك فيما أحسنت فيه، إنه أعظم مأمول وأكرم مسئول، «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

الدوحة: جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ.

فبراير ١٩٨٦ م

(١) كتبت مسودة هذه المقدمة منذ أكثر من سنتين، قبل الفراغ من طبع الجزء الأول، ولم يقدر لي الله تبييضها ووضعها في الصورة النهائية إلا هذه الأيام. ولكل شيء أجل مسمى. وما شاء الله كان.

ترجمة الإمام المنذري

هو : عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد المنذري .

ترجم له التاج السبكي في (طبقات الشافعية) [1] فقال :

(الحافظ الكبير ، الورع الزاهد ، زكي الدين أبو محمد المصري ، ولي الله ، والمحدث عن رسول الله ﷺ ، والفقيه على مذهب ابن عم رسول الله ﷺ « يعني الإمام الشافعي رضي الله عنه » ترتجى الرحمة بذكره ، ويستنزل رضا الرحمن بدعائه .

كان رحمه الله قد أُوتي بالمكيال الأَوفى من الورع والتقوى ، والنصيب الوافر من الفقه ، وأَما الحديث فلا مراء في أَنه كان أَحفظ أَهل زمانه ، وفارس أَقرانه ، له القدم الراسخ في معرفة صحيح الحديث من سقيمه ، وحفظ أَسماء الرجال حفظ مفرط الذكاء عظيمه ، والخبرة بأَحكامه ، والدراية بغريبه وإعرابه واختلاف كلامه .

ولد في غرة شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (٥٨١ هـ) .

تفقه على الإمام أَبي القاسم عبد الرحمن بن محمد القرشي بن الوراق .

وسمع من أَبي عبد الله الأَرتاحي ، وعبد المجيب بن زهير ، ومحمد بن سعيد المأْموني ، والمطهر بن أَبي بكر البيهقي ، وربيعة اليمني الحافظ ،

---

(١) جـ ١ ص ٢٥٩ بتحقيق الأستاذين : عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، وذكرا أن له ترجمة في : (البداية والنهاية ٣١٢/١٣) (تذكرة الحفاظ ١٤٣٨/٤) (حسن المحاضرة ٣٥٥/١ ، ٤١٤) (ذيل الروضتين ٣٠١) (ذيل مرآة الزمان ٢٤٨/١ – ٢٥٣) (السلوك ٤١٢/١) (شذرات الذهب ٢٧٧/٥) (العبر ٢٣٢/٥) (فوات الوفيات ٦١٠/١) (المختصر لأبي الفدا ١٩٧/٣) (مرآة الجنان ١٣٩/٤) (النجوم الزاهرة ٦٣/٧ ، ٦٨) .

والحافظ الكبير علي بن المفضل المقدسي ، وبه تخرج ، وسمع بمكة عن أبي عبد الله بن البناء وطبقته ، وبدمشق من عمر بن طبرزد ، ومحمد بن وهب بن الزيق ، والخضر بن كامل ، وأبي اليمن الكندي ، وخَلْق .

وسمع بحران والرها والإسكندرية وغيرها .

وتفقه ، وصنف « شرحاً على التنبيه » وله « مختصر سنن أبي داود وحواشيه » كتاب مفيد ، و « مختصر صحيح مسلم » وخرج لنفسه معجماً كبيراً مفيداً ، وانتقى وخرج كثيراً ، وأفاد الناس .

وبه تخرج الحافظ أبو محمد الدمياطي ، وإمام المتأخرين : تقي الدين ابن دقيق العيد ، والشريف عز الدين ، وطائفة ، وعمت عليهم بركته ، وقد سمعنا الكثير ببلبيس على أبي الطاهر ، إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن علي بن سيف بإجازته منه .

قال الذهبي : وما كان في زمانه أحفظ منه .

قلت : وأما ورعه فأشهر من أن يحكى .

وقد درس بالآخرة في دار الحديث الكاملية ، وكان لا يخرج منها إلّا لصلاة الجمعة ، حتى إنه كان له ولد نجيب محدث فاضل ، توفاه الله تعالى في حياته ليضاعف له في حسناته ، فصلّى عليه الشيخ داخل المدرسة ، وشيعه إلى بابها . ثم دمعت عيناه ، وقال : أودعتك يا ولدي لله ! وفارقه ، سمعت أبي رضي الله عنه يحكي ذلك . . وسمعته أيضاً يحكي عن الحافظ الدمياطي : أن الشيخ مرة خرج من الحمام ، وقد أخذ منه حرها ، فما أمكنه المشي ، فاستلقى على الطريق إلى جانب حانوت ، فقال له

الدمياطي : يا سيدي ، ما أقعدك على مصطبة الحانوت ، وكان الحانوت مغلقاً فقال « في الحال » وهو في تلك الشدة : بغير إذن صاحبه ، كيف يكون ؟ ! وما رضي .

ومما حكاه التاج السبكي عن أبيه الإمام تقي الدين أن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام كان يُسْمِع الحديث قليلا بدمشق ، فلما دخل القاهرة بطل ذلك ، وصار يحضر مجلس الشيخ زكي الدين ، ويسمع عليه في جملة من يَسمَع ولا يُسمِع ! وإن الشيخ زكي الدين أيضاً ترك الفتيا ، وقال : حيث دخل الشيخ عز الدين لا حاجة بالناس إليّ .

أقول : وهذا من أدب الأكابر ، وأخلاق العلماء الأعلام : أن يدع كل منهم لصاحبه ما هو أحق به وأولى .

ومن شعره :

اعمل لنفسك صالحاً لا تحتفل ... بظهور قيل في الأنام وقال

فالخَلْق لا يرجى اجتماع قلوبهم ... لابد من مثنٍ عليك وقال[1]

توفي في الرابع من ذي القعدة ، سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ) ا.هـ.

وهذه هي السنة التي دخل التتار فيها بغداد ، وقضوا على الخلافة العباسية وسالت فيها دماءُ المسلمين أنهاراً . ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

وقال عنه الحافظ ابن كثير في تاريخه : (الإمام العلامة ... الشافعي المصري ، أصله من الشام ، وولد بمصر وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة ، وإليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة ... وسمع الكثير ، ورَحل

(١) قال : مبغض ، ومنه قوله تعالى : (ما ودعك ربك وما قلى) .

وطلب ، وعني بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه فيه ، وصنف وخرج ، واختصر صحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، وهو أحسن اختصاراً من الأول ؛ وله اليد الطولى في اللغة والفقه والتاريخ ، وكان ثقة حجة متحرياً زاهداً ، توفي يوم السبت رابع ذي القعدة من هذه السنة (٦٥٦هـ) بدار الحديث الكاملية ، ودفن بالقرافة بمصر رحمه الله تعالى) .



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الحافظ المنذري

قال الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري رحمه الله تعالى : الحمد لله المبدىء المعيد ، الغني الحميد ، ذي العفو الواسع والعقاب الشديد ، من هداه فهو السعيد السديد ، ومن أضلّه فهو الطريد البعيد ، ومن أرشده إلى سبيل النجاة ووفقه فهو الرشيد كل الرشيد ، يعلم ما ظهر وما بطن ، وما خفي وما علن ، وما هجن وما كمل؛ وهو أقرب إلى كل مريد من حبل الوريد ، قسّم الخلق قسمين ، وجعل لهم منزلتين : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ (٢) ورغّب في ثوابه ، ورهّب من عقابه ، ولله الحجة البالغة ، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٣) . أحمده وهو أهل الحمد والتحميد ، وأشكره والشكر لديه من أسباب المزيد ، وأشهد أن لا إلٰـه إلّا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد والبطش الشديد ، شهادة كافلة لي عنده بأعلى درجات أُولي التوحيد ، في دار القرار والتأْبيد . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، البشير النذير ، أشرف من أظلَّتِ السماء ، وأقلتِ البيد ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ، وعلى آله وأصحابه أُولي المعونة على الطاعة والتأْييد ، صلاة دائمة في كل حين تنمو وتزيد ، ولا تنفد ما دامت الدنيا والآخرة ولا تبيد.

---

(١) سورة الشورى : ٧ .

(٢) سورة هـود : ١٠٧ .

(٣) سورة فصلت : ٤٦ .

أمـا بعد : فلما وفقني الله سبحانه وتعالى لإملاء كتاب مختصر أبي داود ، وإملاء كتاب الخلافيات ، ومذاهب السلف ، وذلك من فضل الله علينا وسعة منه ، سألني بعض الطلبة أُولي الهمم العالية ممن اتصف بالزهد في الدنيا والإقبال على الله عز وجل بالعلم والعمل ، زاده الله قرباً منه ، وعزوفاً عن دار الغرور ، أن أُملي كتاباً جامعاً في : « الترغيب والترهيب » مجرداً عن التطويل ، بذكر إسناد أو كثرة تعليل ، فاستخرت الله تعالى وأسعفته بطلبته ، لمـا وقر عندي من صدق نيته وإخلاص طويته ، وأمليت عليه هذا الكتاب : صغير الحجم ، غزير العلم ، حاوياً لمـا تفرق في غيره من الكتب ، مقتصراً فيه على ما ورد صريحاً في الترغيب والترهيب ، ولم أذكر ما كان من أفعال النبي ﷺ المجردة عن زيادة نوع من صريحهما إلّا نادراً في ضمن باب أو نحوه ، لأني لو فعلت ذلك لخرج هذا الإملاء إلى حدّ الإسهاب الممل ، مع أن الهمم قد داخلها القصور ، والبواعث قد غلب عليها الفتور ، وقصر العمر مانع من استيفاء المقصود .

فأذكر الحديث ثم أعزوه إلى من رواه من الأئمة أصحاب الكتب المشهورة التي يأتي ذكرها ، وقد أعزوه إلى بعضها دون بعض ، طلباً للاختصار ، لاسيما إن كان في الصحيحين أو في أحدهما ، ثم أُشير إلى صحة إسناده أو حسنه أو ضعفه ونحو ذلك إن لم يكن مَنْ عزوته إليه ممن التزم إخراج الصحيح فلا أذكر الإسناد كما تقدم ، لأن المقصود الأعظم من ذكره إنما هو معرفة حاله من الصِّحة والحسن والضعف ونحو ذلك ، وهذا لا يدركه إلّا الأئمة الحفاظ أُولو المعـرفة التامة

والإتقــان ، فإذا أُشير إلى حاله أَغني عن التطويل بإيراده ، واشترك في معرفة حــاله من له يد في هذه الصناعة وغيره .

وأَما دقائق العلل فلا مطمع في شيءٍ منها لغير الجهابذة من النقّاد أئمة هذا الشأْن ، وقد أَضربت عن ذكر كثير منها في هذا الكتاب طلباً للاختصار ، وخوفاً من التنفير الناقض للمقصود ، ولأَن من تقدم من العلماء رضي الله عنهم أَساغوا التساهل في أَنواع من الترغيب والترهيب ، حتي إن كثيراً ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله ! وقد أَشبعنا الكلام على حال كثير من الأَحاديث الواردة في هذا الكتاب في غيره من كتبنا .

فإذا كان إسناد الحديث صحيحاً أَو حسناً أَو ما قاربهما ، صدَّرته بلفظة : « عن » وكذلك إن كان مرسلا أَو منقطعاً أَو معضلا ، أَو في إسناده راوٍ مبهم ؛ أَو ضعيف وُثِّــق ، أَو ثقــة ضُعِّف ، وبقية رواة الإسناد ثقات ، أَو فيهم كلام لا يضر ، أَو روي مرفوعاً والصحيح وقفه ، أَو متصلا والصحيح إرساله ، أَو كان إسناده ضعيفاً لكن صححه أَو حسنه بعض من خرجه ، أَصدِّره أَيضاً بلفظة : « عن » ثم أُشير إلى إرساله وانقطاعه ، أَو عضله ، أَو ذلك الراوي المختلَف فيه ، فأَقول : رواه فلان من رواية فلان ، أَو من طريق فلان ، أَو في إسناده فلان ، أَو نحو هذه العبارة ، لا أَذكر ما قيل فيه من جرح وتعديل ، خوفاً من تكرار ما قيل فيه كلما ذكر ، وأَفردت لهؤلاءِ المختلَف فيهم باباً في آخر الكتاب ، أَذكرهم فيه مرتباً على حروف المعجم ، وأَذكر ما قيل في كل منهم من جرح وتعديل على سبيل الاختصار ، وقد لا أَذكر ذلك الراوي المختلَف فيه ، فأَقول إذا كان رواة إسناد الحديث ثقات وفيهم من

اختُلِفَ فيه : إسناده حسن ، أو مستقيم ، أو لا بأْس به ، ونحو ذلك حسبما يقتضيه حـال الإسناد والمتن وكثرة الشواهد.

وإذا كان في الإسناد مَنْ قيل فيه كذّاب ، أو وضّاع ، أو متهم ، أو مجمع على تركه أو ضعفه ، أو ذاهب الحديث ، أو هالك ، أو ساقط ، أو ليس بشيءٍ ، أو ضعيف جدًّا ، أو ضعيف فقط ، أو لم أر فيه توثيقاً بحيث لا يتطرق إليه احتمال التحسين صدّرته بلفظة : « رُوي » ولا أذكر ذلك الراوي ، ولا ما قيل فيه ألبتة ، فيكون للإسناد الضعيف دلالتان : تصديره بلفظة « رُوي » وإهمال الكلام عليه في آخره ، وقد استوعبت جميع ما كان من هذا النوع من كتاب : موطأ مالك ، وكتاب مسند الإمام أحمد ، وكتاب صحيح البخاري ، وكتاب صحيح مسلم ، وكتاب سنن أبي داود ، وكتاب المراسيل له ، وكتاب جامع أبي عيسي الترمذي ، وكتاب سنن النسائي الكبرى ، وكتاب اليوم والليلة له ، وكتاب سنن ابن ماجه ، وكتاب المعجم الكبير ، وكتاب المعجم الأوسط وكتاب المعجم الصغير : الثلاثة للطـبراني ، وكتاب مسند أبي يعلى الموصلي ، وكتاب مسند أبي بكر البزار ، وكتاب صحيح ابن حبان ، وكتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبد الله النيسابوري رضي الله عنهم أجمعين ، ولم أترك شيئاً من هذا النوع في الأُصول السبعة ، وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم ، إلّا ما غلب عليّ فيه ذهول حال الإملاءِ أو نسيان ، وأكون قد ذكرت فيه ما يغني عنه ، وقد يكون للحديث دلالتان فأكثر ، فأذكره في باب ثم لا أعيده ، فيتوهم الناظر أني تركته ، وقد يرد الحديث عن جماعة من الصحابة بلفظ واحد ، وبألفاظ متقاربة ، فأكتفي بواحد منها عن سائرها ، وكذلك لا أترك

شيئاً من هذا النوع من المسانيد والمعاجم ، إلّا ما غلب عليّ فيه ذهول أو نسيان ، أو يكون ما ذكرت أصلح إسناداً مما تركت ، أو يكون ظاهر النكارة جدًّا ؛ وقد أجمع على وضعه أو بطلانه ، وأضفت إلى ذلك جملا من الأحاديث معزوة إلى أصولها ، كصحيح ابن خزيمة ، وكتاب ابن أبي الدنيا ، وشعب الإيمان للبيهقي ، وكتاب الزهد الكبير له ، وكتاب الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني ، وغير ذلك ، كما ستقف عليه إن شاءَ الله تعالى ، واستوعبت جميع ما في كتاب أبي القاسم الأصبهاني مما لم يكن في الكتب المذكورة ، وهو قليل ، وأضربت عن ذكر ما قيل فيه من الأحاديث المتحققة الوضع .

وإذا كان الحديث في الأصول السبعة لم أعزه إلى غيرها من المسانيد والمعاجم إلّا نادراً لفائدة ، طلباً للاختصار ، وقد أعزوه إلى صحيح ابن حبان ومسند الحاكم إن لم يكن متنه في الصحيحين .

وأنبه على كثير مما حضرني حال الإملاءِ مما تساهل أبو داود رحمه الله تعالى في السكوت عن تضعيفه ، أو الترمذي في تحسينه ، أو ابن حبان والحاكم في تصحيحه ، لا انتقاداً عليهم رضي الله عنهم ، بل مقياساً لمتبصر في نظائرها من هذا الكتاب .

وكل حديث عزوته إلى أبي داود وسكَتَ عنه ، فهو كما ذكر أبو داود ، ولا ينزل عن درجة الحسن ، وقد يكون على شرط الصحيحين أو أحدهما ؛ وأنا استمد العون على ما ذكرت من القوي المتين ، وأمدّ أكف الضراعة إلى من يجيب دعوة المضطرين ، أن ينفع به كاتبه وقارئه ومستمعه وجميع المسلمين ، وأن يرزقني فيه من الإخلاص ، ما يكون كفيلا لي في الآخرة بالخلاص ، ومن التوفيق ما يدلني على أرشد طريق ، وأرجو منه الإعانة على حزن الأمر وسهله ، وأتوكل عليه ، وأعتصم بحبله ، وهو حسبي ونعم الوكيل .